# الإسلام والغرب

رُؤية مُحمَّد أسد (Leopold Weiss سابقًا)

تأليف الدكتور صفوت مصطفى خليلوفيتش

ترجمه من البوسنية إلى الإنجليزية
أ. محمَّد باشا بليجوفيتش

وترجمته من الإنجليزية إلى العربية
الدُّكتورة هدير أبو النَّجاه

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

# الإسلام والغرب

## رؤية محمد أسد (Leopold Weiss سابقًا)

تأليف

الدكتور صفوت مصطفى خليلوفيتش

ترجمه من البوسنية إلى الإنجليزية

أ. محمد باشا بليجوفيتش

وترجمته من الإنجليزية إلى العربية

الدكتورة هدير أبو النجاه

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الطبعة الأولى

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشئون الفنية

خليلوفيتش ، صفوت مصطفى .
الإسلام والغرب / تأليف صفوت مصطفى خليلوفيتش ؛ ترجمه من البوسنية إلى الإنجليزية محمد نيجوفيتش ؛ ترجمه من الإنجليزية إلى العربية هدير أبو النجاه . - ط ١. - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠٠٧ م .
١٤٤ ص ؛ ٢٠سم .
تدمك X ٥٧٢ ٣٤٢ ٩٧٧ .
١ - الإسلام والديانات الأخرى .
أ - نيجوفيتش ، محمد ( مترجم ) .
ب - أبو النجاه ، هدير ( مترجم ) .
٢١٤,٢ .

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عمر الجائزة تتويجا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ ( ٢٠٢ + ) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ ( ٢٠٢ + )
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ ( ٢٠٢ + )
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ ( ٢٠٢ + )
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ ( ٢٠٣ + )
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة الترجمة العربية

عندما طلب مني مؤلِّف الكتاب العالم البوسنوي د .صفوت خليلوفيتش ترجمة هذا الكتاب من الإنجليزية إلى العربية لم تكن معرفتي بمحمد أسد تتعدَّى كونه عالماً من علماء المسلمين المرموقين في القرن العشرين ، وكونه من أصلٍ يهودي ، ولم تتعدَّ معرفتي بمؤلَّفاته بعض عناوين كتبه ومقتطفات كنت قد قرأتها سابقًا من كتابه « الطريق إلى مكة » . ولكن بعد قراءتي الأولية للكتاب تعلَّقتُ بفِكْرِ مُحمد أسد ، ورحت أبحث عن مؤلَّفاته في المكتبات وفي شبكة المعلومات ، فقرأتُ الكثيرَ منها ، مِمَّا جعلني أُقَدِّرُ وبِشَكْلٍ كبير أهمية ترجمة هذا الكتاب إلى العربية ، حتى أضع بين يدي قارئ العربية خلاصة فِكْرِ هذا العلَّامة في بعض المواضيع الهامة ، والتي تعني القارئ العربي اليوم بالدرجة الأولى .

وقد لا يكون هذا الكتاب هو الأول عن فِكْرِ محمد أسد بالعربية ، ولكنه يتميَّز عن غيره بأسلوب تناوُله لهذا الفكر حيث عرض مؤلِّفه فِكْرَ هذا العالم الجليل بطريقة مستعرضة تناولت تحليلًا لِفِكْرِهِ من خلال عدَّة كتبٍ ، وليس من خلال كتاب واحد مثلما فعلت معظم الكتابات التي وجدتُها . وفي حين اهتمَّت معظم الكتابات السابقة

عن محمد أسد بقصَّة إسلامه واقتناعه بالإسلام ، يَنْـهَجُ الكتاب الذي بين أيدينا مَنْهَجًا مُخْتَلِفًا ؛ حيث ركَّز على رؤية محمد أسد في العلاقة بين الإسلام والغرب ، وعلى الوضع الحالي للأمة الإسلامية وكيفية تغييره .

وتتجلَّى أهميةُ صدور مثل هذا الكتاب في هذا الوقت تحديدًا حيث تعالت الأصوات منادية بحوار الحضارات ، وإيجاد نقط وقنوات تواصُل حضاري بين الثقافات المختلفة ، وحتى لا تتحوَّل هذه الدعوة إلى مجرَّد عبارة جوفاء نردِّدُها دون أن نُدرك أبعادها وخلفياتها ، يتعيَّنُ علينا كمسلمين أن ندرُس تاريخنا وحضارتنا من منظورٍ إسلامي ، وليس من منظور غربي كما تعوَّدنا أن نفعل . ويتعيَّنُ علينا كذلك أن نَدْرُسَ - ومن نفس المنظور - حضارة الآخر ، سواء كان هذا الآخر هو الغرب المسيحي أم الشرق الوثني . وقبل أن نجلس على مائدة الحوار - الافتراضي - يجب أن نعي دروس الماضي القريب والبعيد على حدٍّ سواء ، وأن نفيد منها ، وأن نحاول أن ندرك دوافع هذا الحوار ونتائجه . والواقع يؤكِّد أنه حتى الآن لم يحدث حوار حقيقيٌّ للحضارات ، وإنما حدث حوار من جانبٍ واحد ، لم نستطع من خلاله أن نعبِّر عن أنفسنا ، بل لعبنا دور المستمع المطيع بجدارة ، ورددنا بحرفية فائقة ما وصمنا به الغرب ، وكأننا صدًى لصوته ، ولا يمكن بحال أن يحدث حوار للحضارات إلا من منطلق المساواة . المساواة الفكرية والثقافية التي نحرزها ونصل إليها بالبحث والاجتهاد وليست المساواة التي يَمُنُّ علينا الغرب بها ويقنعنا

أننا قد حققناها لأنفسنا . عندها فقط يمكننا الجلوس إلى مائدة الحوار ، وأعتقد أن هذا الكتاب قد يكون بمثابة خطوة أولى على طرق الاستعداد الفكري والثقافي لفهم الآخر والاستعداد للحوار الإيجابي معه .

ويختلف هذا الكتاب عن أمثاله من الكتب التي تبحث في هذا المجال أنه يغوص في فكر محمد أسد الذي كان في يوم من الأيام « الآخر » الذي يجب أن نتحاور معه ، فهو إذًا على دراية كاملة بالأبعاد والمنطلقات التي يتحدَّث من خلالها هذا الآخر ، وهو يعي تمامًا الدوافع الحقيقية له دون زَيْفٍ أو خداع . فتحيَّةً مني إلى روح العالم الجليل محمد أسد لمحاولته أن يضع أقدامنا على الطريق في فهم الحضارة الغربية . وتحيَّةً مني كذلك إلى كاتب هذا الكتاب العالم البوسنوي د . صفوت خليلوفيتش على محاولته الجريئة في الغوص في فكر محمد أسد ، فكلاهما ينتمي إلى الحضارة الغربية أصلًا ومنشأً ، ولكنهما ينتميان إلى الإسلام نسبًا وفكرًا وعقيدةً واقتناعًا ، وفيهما يصدق قَوْلُ الرسول الكريم : « **أدخل الإسلام بلالًا في نسبي وأخرج منه أبا لهب** » .

إلى قارئ العربية المحترم ، أنت مدعو إلى إِبْحَارٍ راقٍ وهادئٍ في فِكْرِ العَلَّامة محمد أسد .

الدُّكتُورة هَدير أبو النَّجاه
القاهرة ، يوليو ٢٠٠٦م

# مقدّمة الطبعة الإنجليزية

## أهمية أعمال محمد أسد :

لم يكن محمد أسد عالمًا ومفكّرًا فحسب ، بل كان ظاهرة فكرية فذّة ومميزة شهدها العالم الإسلامي في القرن الماضي . كان أسد قبل إسلامه يهوديًا بولنديًا ، وقد أثرى الحياة الفكرية بعد اعتناقه للإسلام حيث أسهمت أفكاره المتنوِّرة في طرح الكثير من الأفكار الإسلامية من خلال آفاق جديدة . وتميَّز فكر محمد أسد بالعُمْق الشديد في فهم الحضارة الغربية التي كان جزءًا منها ، وكذلك للديانة اليهودية التي كان يعتنقها قبل إسلامه ، وأيضًا معرفته بالديانة المسيحية حيث خالط أهلها منذ مولده وخلال نشأته . وبنفس العمق كان فهمه وإدراكه للحضارة الإسلامية التي وثق في إمكانياتها وأخلص لها منذ إسلامه وحتى وفاته .

إنَّ فكر محمد أسد يقف شاهدًا على رغبته في المعرفة وفضوله الفكري الشديد ، ولكن من خلال إطار مرجعي محدد وهدف عملي . ولقد وجه معظم هذا الفكر لدراسة المواضيع الإسلامية المهمة ، وركز على القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف تحديدًا . وكذلك فهم معنى السلطة في الإسلام والبحث في إمكانية الإبحار في الروحانيات الإسلامية بالرغم من واقعنا الحديث الشديد

المادية والوجودية . ويمكن القول : بأن فكر محمد أسد منصب بالكلية على الإسلام ؛ إذ لم يكن مهتمًّا بتاريخ الحضارة الإسلامية وأمجادها العريقة فحسب ، بل اهتمَّ أيضًا بوضوح رسالة الإسلام ، وبخاصة في عصرنا الحالي الذي اختلفت فيه السبل وتفرَّقت الأهداف . ويبدو واضحًا من عناوين كتب أسد تركيزه على الدور الذي من الممكن أن تلعبه الحضارة الإسلامية في العصر الحديث .

عكف محمد أسد في الفترة ما بين ( ١٩٦٤ - ١٩٨٠م ) على ترجمة معاني القرآن إلى الإنجليزية مصحوبًا بالتعليق على الآيات ، وصدر ذلك في كتابه « رسالة القرآن » The Message of the Qur'an ويصف محمد أسد هذا الكتاب بإنه إنجاز حياته ، ويرى أنه من الممكن أن يضيف الكثير إلى علم التفسير .

ظهر اهتمام محمد أسد بالحديث الشريف منذ بداية إسلامه ، وجاء ذلك نتيجة لترجمته لكتاب « صحيح البخاري » ، وقد قام بأهم جزء في هذه الترجمة أثناء إقامته في الهند ، حيث قابل وصادق محمد إقبال - أعظم مفكر وشاعر إسلامي في النصف الأول من القرن العشرين - ولقد اختفت هذه الترجمة عام ( ١٩٤٧م ) أثناء عملية تهجير المسلمين . كان محمد أسد قد قام بترجمة الأربعة كتب الأولى من صحيح البخاري قبل ذلك بعشرة سنوات أي ( ١٩٣٧م ) ونشرت تحت عنوان

The Early years of Islam- Traditions of the Sayings and Doings of the Prophet Muhammad.

ويعد أوسع كتب محمد أسد انتشارًا كتابه الشهير « الطريق إلى مكة » The Road to Mecca الذي يظهر شوقه الشديد إلى الصفاء الروحي ورغبته الدفينة في الاقتراب من الخالق ، وقد نشر هذا الكتاب عام ( ١٩٥٣م ) . أما كتابه المؤثر The Homecoming of the Heart أو « عودة القلب إلي الديار » ، فهو يعتبر السيرة الذاتية لحياته الروحية بما تحتويه من معان عميقة . ويخصُّ محمد أسد القيادة والسلطة الإسلامية باثنين من أهمِّ كتبه ، وهما : « أصول الحكم والدولة في الإسلام » The Principles of State and Government in Islam ، وكتابه المهم الثاني « هذا قانوننا » This Law of Ours ، ولقد نُشِر الكتاب الأول عام ( ١٩٤٧م ) ويناقش فيه السلطة الإسلامية ، ويعتبر أحد أهم الكتب القرن الماضي في هذا المجال . وفي عام ( ١٩٣٦م ) ظهر كتابه القيِّم « الإسلام في مفترق الطرق » Islam at the Crossroads الذي يناقش فيه أسباب الأزمة التاريخية والحضارية بين الإسلام والعالم ، والعوامل التي تتحكَّم في الفهم الخاطئ للإسلام في أوربا . وهذا الكتاب بالرغم من صِغَرِ حَجْمِهِ ، إلا إنه يعكس فَهْمًا واعيًا ودقيقًا لهذه المسألة ، ويظهر كذلك الأفق الفكري لكاتبه .

ويقف محمد أسد شامخًا وسط مفكِّري القرن العشرين من المسلمين حيث يتميَّز عن الكثيرين بعمق أفكاره وتميزها

في كافة أمور الإسلام الهامة . وكذلك فهمه ودراسته لكلّ ما يتعلّق بالديانات والحضارة والتاريخ الأوربي ؛ حيث يجمع في فهمه للأمور بين الفكر الإسلامي التقليدي وكذلك إلمامه بتجارب الحضارة الغربية الحديثة .

ومع بداية القرن الحادي والعشرين شهد العالم الكثير من الأحداث السياسية والاقتصادية التي جعلت الإسلام مِحْوَرَ تركيز واهتمام الكثيرين . وقد ساهمت هذه المؤثّرات كذلك في تكوين صورة سلبية عن الإسلام في ضمير العالم . ولكي نفهم هذه الأمور على حقيقتها يجب على المفكرين الإسلاميين قراءة فكر محمد أسد وإعادة قراءة أعماله . ومن الصعب أن نجد هذا العدد الكبير من الأفكار المعروضة بذات الوضوح الموجود في أعمال أسد في أعمال أي كاتب أو مفكّر إسلامي آخر ، حيث يعرض أفكاره عن الحضارة الغربية والمجتمع الغربي ورؤيته للإسلام بوضوح جليّ وبنظرة صائبة .

ومن خلال هذا المنطلق يقدّم لنا الدكتور صفوت خليلوفيتش هذا الكتاب ساعيًا - وبحماس - أن يقدّم للعالم الإسلامي اليوم أفكار العلامة محمد أسد حيث يضعها بين أيدينا للدراسة والتفكّر . ورغبة منه في تحقيق أكبر قدر من المصداقية ، فقد اعتمد د . صفوت في تحليله على النصوص الأصلية من كتابي محمد أسد :

Islam at the Crossroads, The Road to Mecca.

الكتاب الذي بين أيدينا للدكتور صفوت خليلوفيتش هو رحلة فكرية وإبحارٌ في فِكْرِ محمد أسد ، أحد أهمّ مفكّري القرن العشرين ، وقصة حياته المشوّقة والممتعة . ويعد بمثابة إطلالة فكرية وروحية على أهمّ الموضوعات التي تتعلّق بكلٍّ من الإسلام والمسيحية واليهودية وعلاقتها بالثقافة والحضارة الغربية في القرن العشرين . ولعلَّ من أهم الأمور التي أولاها كاتبنا اهتمامًا هي أفكار محمد أسد عن الأزمات الموجودة في العالم الإسلامي وأسبابها وإمكانية التغلّب عليها . وعلى الرغم من مرور ما يزيد عن نصف قرن على كتابات محمد أسد ، إلا أنَّ عُمْقَهَا وطريقة عرضها والحلول التي تطرحها تجعلها تبدو وكأنها تعبّر عن واقعنا الحالي ، وكأنها تصف حياتنا الروحية وتاريخنا المعاصر .

**نصرت إيسانوفيتش**

عميد الأكاديمية الإسلامية للتربية

في زنيتسا ( البوسنة والهرسك )

* * *

# الفَصِلُ الأول

## روح الحضارة الغربية من وجهة نظر محمد أسد

### تمهيد :

ليس هناك شكٌّ في أن الحضارة الغربية تسيطر على العالم الآن ، ولقد أضافت هذه الحضارة إلى الإنسانية الكثير من الخصائص الإيجابية ، وبخاصَّة فيما يتعلَّق بالعلم والتقدُّم التكنولوجي ، ولكن ما هي روح هذه الحضارة ؟ هل هي مادِّية بالكلية ؟ لماذا يتصف الغرب بالتعالي تجاه الإسلام والمسلمين ؟ هل لدى الإسلام ما يقدِّمه لعالم اليوم ؟ هل يمكن للغرب أن يتَّجه للإسلام ؟ لعلَّه من المفيد أن نبحث عن إجابات هذه الأسئلة وزيادة في فِكْرِ محمد أسد ، العالم الغربي المتميِّز والخبير في شؤون الحضارة الغربية ، حيث اعتنق محمد أسد الإسلام في شبابه وأمضى بقية حياته في خدمته .

### مَنْ هو مُحمد أسد ؟

قبل اعتناقه الإسلام ، كان اسمه ليبولد فايس (Leopold Weiss) . ولد في عام ( ١٩٠٠م ) في مدينة « لوو » في شرق « جلاسيا » (Galacia) التي كانت في ذاك الوقت واقعة تحت حكم المملكة النمساوية المجرية .

وينتمي إلى عائلة يهودية لها مكانتها العلمية والاجتماعية ، وكان جدُّه لوالده حاخامًا في « سيزرنويدز » عاصمة مقاطعة « باكوين » النمساوية في ذلك الوقت ، وكان يرغب أن يكون ابنه البكر ( والد ليوبولد ) حاخامًا كذلك ؛ ليواصل ما كان عليه رجال العائلة لعدة أجيال . ولقد تلقَّى ليوبولد بدوره تعليمًا مكثَّفًا في كافة أفرع الديانة العبرية ، مِمَّا أهَّله للإلمام التام بالعبرية وأن يتحدثها بطلاقة عند بلوغه الثالثة عشرة . هذا بالإضافة إلى تعلُّمه اللغة الآرامية ، الأمر الذي ساعده على إتقان العربية فيما بعد . ولقد دَرَسَ كذلك الفنون والتاريخ والفلسفة لفترة من الوقت ولكنه لم يستمر في دراستها لعدم اقتناعه بها . وقد تلقَّى أيضًا إلى بعض المحاضرات في التحليل النفسي . زار ليوبولد القدس لأوَّل مرَّة عام ( ١٩٢٢م ) ؛ تلبيةً لدعوة خاله دوريان الذي كان أحد تلاميذ فرويد ، وكان يعمل فى التحليل النفسي . وتعتبر هذه الزيارة والأيام التي قضاها في هذه المدينة هي نقطة التحوُّل في حياته ، حيث إنه تعلَّم من خلال الملاحظة العينية للمسلمين أن الإسلام لم ينتشر بالحديد والنار حسبما تعلَّم من قبل في كتبه المدرسية وفي محيطه الاجتماعي وسريعًا ما أيقن الفتى أن بيئته الاجتماعية قد كوَّنت لديه صورة مشوَّهة تمامًا عن الإسلام ، وكل من حوله لم تكن لديهم الرغبة في التحدُّث أو الكتابة بحيادية عن هذه الديانة . وفي هذا السياق يقول ليوبولد :

« لقد تعلَّمتُ منذ نشأتي المبكرة أن الإسلام وتاريخه الثقافي يمثلان أحد الطرق الجانبية في تاريخ البشرية ، ومن خلال كتبي الدراسية عرفت أن التعاليم الروحية والأخلاقية التي أتى بها محمد - والتي كانت معرفتي بها محدودة - لا تستحقُّ الاحترام ، وبالتالي لا يجدر ذكرها ولا مقارنتها بالديانتين الوحيدتين اللتين يقتنع بهما الغرب ويأخذهما مأخذ الجدِّ ، وهما المسيحية واليهودية » .

وفي هذ العام الذي زار فيه القدس التحق ليوبولد بوظيفة مراسل صحيفة فرانكفورتر زيوتنج الألمانية (Frankfurter Zeitung) عن منطقة الشرق الأوسط ، وفى هذا العام أيضًا التقى في القدس برئيس لجنة العمل الصهيوني يوشيسكين ، وكذلك الدكتور شاييم وايزمان الزعيم الحقيقي للحركة الصهيونية ، ولكنه في حواره معهما كان متعاطفًا جدًّا مع العرب الفلسطينيين . ولقد لاحظ ليوبولد أنه في ذلك الوقت - أي عام ( ١٩٢٢م ) - كان تعداد العرب الذين يقطنون فلسطين خمسة أضعاف اليهود ، وأن فلسطين أرض عربية أكثر منها يهودية .

رحلة البحث عن الحقيقة أوصلت ليوبولد إلي شاطئ الإسلام الذي اعتنقه عن اقتناع تام ، وغيَّر أسمه عام ( ١٩٢٦م ) إلى محمد أسد . وفي مراحل لاحقة في حياته كوَّن علاقات مع كل من الشيخ مصطفى المراغي الذي

أصبح فيما بعد شيخًا للجامع الأزهر ، والملك سعود ملك السعودية ، والزعيم الليبي عمر بن المختار ، ومحمد إقبال الكاتب والمفكر الإسلامي المعروف والأب الروحي لفكرة إقامة دولة باكستان . ولقد قام محمد أسد بالعديد من الأعمال المهمة في باكستان لحق ذلك تعيينه مندوبًا لها بالأمم المتحدة عام ( ١٩٥١م ) ، ولكنه بعد تنحِّيه عن هذا المنصب استقرَّ في « تانجر » وكرَّس وقته للكتابة [١] .

قام محمد أسد بكتابة العديد من الكتب والنشرات بالعربية والإنجليزية والألمانية ، منها : « الطريق إلى مكة » The Road to Mecca ، و« الإسلام في مفترق الطرق » Islam at the Crossroads ، ويعتبر كتابه القيم « رسالة القرآن » The Message of the Qur'an الذي ترجم فيه معاني القرآن إلى الإنجليزية أهمَّ أعماله [٢] .

توفي محمد أسد عام ١٩٩٢م ، ودُفن في مقابر إسلامية صغيرة في غرناطة بإسبانيا [٣] .

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن حياة محمد أسد يمكن مراجعة مقدمة ترجمة كتابه « الطريق إلى مكة » التي كتبها سالم عابد حاجيتش الصادر في سراييفو ، دار القلم ( ١٩٩٧م ) .

(٢) تمت ترجمة هذا الكتاب أيضًا إلى البوسنية وسوف يتم نشره قريبًا .

(٣) قام الكاتب د . صفوت خليلوفيتش بزيارة قبر محمد أسد في غرناطة بإسبانيا في ديسمبر عام ( ٢٠٠٣ م ) .

## اعتناقه الإسلام :

لعلّه من المفيد والمشوق في ذات الوقت أن نعرف كيف اعتنق هذا العالم المطلع على ثقافات العالم الإسلام ، وكان ذلك في عام ( ١٩٢٦م ) ، وهذه قصَّته كما يرويها في كتابه « الطريق إلى مكة » :

« كان اعتناقي الإسلام بمثابة عبور جسر طويل يربط بين عالمين مختلفين ، جسر طويل يجب أن تمر بنقطة اللاعودة فوقه قبل أن تصل إلى الطرف الآخر ، وكنت أعلم تمامًا أني إذا اعتنقت الإسلام سوف أقطع كل أواصر الصلة مع العالم الذي نشأت به ؛ حيث لم يكن من الممكن حدوث شيء آخر . فلا يمكن للإنسان أن يستجيب لنداء محمد ويستمر في ارتباطه بعالم تحكمه مفاهيم تناقض هذا النداء بالكلية . ولكن هل الإسلام حقًّا رسالة سماوية من عند اللَّه ، أم أنه خلاصة حِكْمَة رجلٍ عظيمٍ ، ولكنه أولًا وأخيرًا مخلوق وليس إله ؟ » .

شغلت هذه الأفكار ذهن الفتى اليافع ليوبولد ، ولكن لم تلبث اللحظة الحاسمة أن تأتي بعد فترة وجيزة حيث يصفها لنا في كتابه « الطريق إلى مكة » كما يلي :

« في أحد الأيام عام ( ١٩٢٦م ) كنت أنا و « إيلزا » نركب مترو الأنفاق في مدينة برلين ، وكنت في العربة المخصَّصة للدرجة الأولى . وتجوَّلتُ بعيني في الجالسين حولي

فوقعت على رجل يجلس أمامي وهو كما يبدو رجل أعمال ميسور يحمل حقيبة أوراق جلدية قيِّمة ويتحلّى بخاتم ثمين من الماس بإصبعه . وقلت في عقلي كيف تنطبق صورة هذا الرجل الأنيق على الكثيرين في وسط أوربا حيث توجد حالة من الرخاء بعد عدة سنوات من التضخم الاقتصادي انقلبت بعدها الأحوال ، فأصبح معظم الناس ينعمون بالمأكل الجيد والملبس الأنيق كما هو حال هذا الرجل الجالس أمامي . ولكنني عندما حدَّقت النظر في وجهه لم يبد لي سعيدًا ، فكان يبدو قلقًا ، لا ، ليس فقط قلقًا بل حزينًا حيث بدت عيناه تحلقان في الفراغ وانحنت زاويتي فمه لأسفل ، وكأنه يتأوه من الألم ، ولكن ليس ألمًا عضويًا . ومحافظةً مني على الآداب العامة لم أشأ أن أطيل النظر أكثر من ذلك . ووقعت عيني على السيدة الأنيقة الجالسة بجواره فإذا بوجهها يعكس نفس التعبير التعيس وكأنها تفكر في شيء يسبب لها الألم ، وكانت هناك ابتسامة باهتة ترتسم بحكم العادة على شفتيها . وعندها بدأت أتجوَّل بنظري في وجوه الجالسين حولي في العربة فإذا بها كلها وجوه أنيقة يبدو عليها رَغَدُ العيش ، ولكنها كلها حزينة يبدو عليها القلق والمعاناة من شيء مجهول لا يعلمه حتى صاحبه .

كان هذا غريبًا بالفعل ، لم أر من قبل كل هذه الوجوه التعيسة من حولي ! أم أنني لم أكن أدرك ذلك من قبل ؟ وقد كان تأثُّري بمن حولي عميقًا حتى أنني نقلت ملاحظتي

لـ « إيلزا » التي بدأت بدورها تنظر في وجوه من حولنا بعين الفنان الفاحصة التي تعودت على دراسة وفهم الملامح البشرية ، فإذا بها تلتفت إليَّ وتقول : إنك على حق ، فكأن عذابًا شديدًا يسحقهم من الداخل ، ولكن لا أدري إن كانوا أنفسهم يعرفون ما يعانون منه .

وكنت على يقين أنهم لا يعرفون ، فلو كانوا يعلمون ما استمروا في إضاعة حياتهم على هذا النحو ، دون الاستناد إلى الحقيقة ، بدون هدف سوى الوصول إلى المستوى المعيشي المرتفع ، بدون أمل خلاف تحقيق الأمان المادي وتصنيع المزيد من الآلات والمزيد من القوة .

وعندما عدنا إلى البيت وَقَعَ بصري على الصفحة المفتوحة من القرآن التي كنت أقرأ فيها سابقًا ، ومددت يديَّ لأطوي الكتاب ، فإذا بي أقرأ في الصفحة المفتوحة أمامي :

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [ التكاثر : ١ - ٨] .

وعجزتُ عن الكلام للحظة ، وأعتقد أن الكتاب قد اهتزَّ بيدي فناولته لـ « إيلزا » وقلت لها : اقرئي ، أليس فيه إجابة لـما شاهدناه في مترو الأنفاق اليوم ؟

نعم لقد كان جوابًا حاسمًا يقدح كلَّ الشكوك بأن هذا

الكتاب الذي أحمله من وحي الإله : فقد توقع حال الناس في هذا الزمان المادي الميكانيكي .

« فبالرغم من أنه بين يدي الناس منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا من الزمان ، فقد تنبَّأ بحقائق لم تحدُث إلا في هذا العصر بعدما أصبحت الحياة ميكانيكية ومعقَّدة ، وتسيطر عليها الكيانات الضخمة . فالأمر كما أراه ليس مجرَّد حكمة رجل من الجزيرة العربية ، فمهما بَلَغَتْ حكمته لم يكن يستطيع أن يتكهَّن بالعذاب الذي سيمرُّ به أهل القرن العشرين . فالصوت الذي ينطلق من القرآن أعظم بكثير من صوت محمد .. » (١) .

## الآلة إله القرن العشرين :

في وقت مبكر من هذا القرن أعلن محمد أسد ( ليوبولد فايس سابقًا ) عدم اقتناعه بما وصل إليه حال الإنسان في المجتمع الغربي (٢) ، حيث أصبح لا يقنع إلا بما يمكن لمسه ومشاهدته بالعين يقوده شعور مستمر ورغبة عارمة بضرورة

---

( ١ ) انظر The Road to Mecca ( ص ٣٠٨ - ٣١٠ ) .

( ٢ ) وفي هذا المجال يسجِّل الدبلوماسي الألماني مراد ويلفرد هوفمان الحاصل على درجة الماجستير من جامعة هارفرد - والذي اعتنق الإسلام أيضًا - أن آلهة المجتمع الغربي في القرن العشرين هي : القوة والمال والجمال والشهرة والجنس . ولم تطغ المعرفة على نفس نصيب هذه المقومات ؛ لأن الديانة المسيحية لم تقدم إجابات وافية لكثير من أسئلة الإنسان في هذا القرن ومنها المعنى الحقيقي للحياة . انظر كتاب هوفمان « الإسلام : الحل البديل » .

اختراع المزيد من الآلات لتحقيق المزيد من الراحة والرفاهية ، وبالتالي فإن محمد أسد يرى أن الإنسان بذلك يتنازل كل يوم عن جزء من ذاته ووجوده للآلة التي يخترعها ليحافظ على وجوده من خلالها حتى سار عبدًا لها . وعلى الرغم من أن الآلة ساعدت الإنسان بالفعل في الحفاظ على وجوده ، إلا أنها تخلق كلَّ يوم داخله احتياج جديد لها ومزيد من الاعتماد عليها ، وهذا بالإضافة إلى المزيد من المخاطر والمخاوف ، وعطشًا متجددًا لخلفاء مصطنعين وغير حقيقيين جدًا . ومن ثمَّ يفقد الإنسان روحه في دوران عجلة العمل لابتكار وإيجاد آلات أقوى وأجمل وأكثر ملاءمة لاحتياجاته المتزايدة . وتفقد الآلة تدريجيًا الغاية الأساسية لوجودها ، وهي حماية وإثراء الحياة الإنسانية ، وتتحوَّل إلى إلهٍ في حدِّ ذاتها، إله فولاذي يطلب مزيدًا من القرابين البشرية كلَّ يوم .

ولا يعي دعاة ورهبان هذا الإله الفولاذي أن السرعة المتزايدة للتقدُّم التكنولوجي ليست فقط نتيجة للثورة المعلوماتية التي يشهدها العالم ، وإنما قد نتجت أيضًا من الخواء والحيرة الروحية للبشر . ويغيب عن ذهن هؤلاء كذلك أن الإنجازات المادية العظيمة التي يفخر الرجل الغربي بتحقيقها وبسيطرته على الطبيعة من خلالها إنما تنطوي في جوهرها على رغبة دفاعية يسلح نفسه بها ضدَّ المجهول الذي ينتظره [1] .

---

( ١ ) انظر The Road to Mecca ( ص ٢٩٤ ) .

## روح الحضارة الغربية :

عرض محمد أسد في كتاباته صورة عن الغرب وروح الحضارة الغربية ، وبدى ذلك واضحًا في كتابه « الإسلام في مفترق الطرق » الذي ناقش فيه الحضارة الغربية بالإضافة إلى أفكار أخرى ، وقد سجَّل الكثير من الملاحظات على هذه الحضارة ، منها على سبيل المثال ما يلي :

« تحكم أنشطة الغرب وحركته مبادئ مثل النفعية والعملية والبقاء للأفضل ، وتسيطر بالكلية على أسلوب حياته . وتتمثل هذه المبادئ في اشتغاله بتحقيق أهداف معينة في حياته دون محاولة إيجاد معنًى وقيمة للحياة في حدٍّ ذاتها . فلم يعد الإنسان الأوربي أو الأمريكي في العصر الحديث يعبأ كثيرًا بتحقيق معنًى أو هدفٍ أو قيمة لحياته ، بل أصبح منشغلًا بنوعية الحياة التي يعيشها وشكلها وبالتقدم الذي يحرزه الإنسان في مجال قدرته على السيطرة على الطبيعة » .

وينفي الإنسان الغربي حاجته للخضوع لأي قوة أو سلطة إلَّا سلطة المادة والقوانين الاجتماعية القومية ، وبالتالي تنتفي لديه قيمة الدين التي تعتمد في جوهرها على رغبة الإنسان في الخضوع لقوة عليا ، واحتياجه للانسياق وراءها وطاعة أوامرها . ومن ثَمَّ فإن القوة العظمى المسيطرة

على الإنسان الغربي ذات طبيعة مادية وليست روحية ، تتحقق من خلالها الراحة الجسدية . وليست الروحية ، وتتجسد فلسفتها في الوصول إلى القوة ؛ رغبة في القوة في حدِّ ذاتها وليس لتحقيق أغراض أسمى أو أبعد من ذلك ، وهي فلسفة مستمدة من الحضارة الرومانية القديمة » [١]

ويرى محمد أسد أن الإنسان الغربي ، سواء كان فاشيًا ، أو رأسماليًا ، أو شيوعيًا عاملًا ، أو مفكرًا ، لا يؤمن إلا بدينٍ واحد ، وهو : إيمانه بالتقدُّم المادي ، ويتركز جهده في محاولة جعل حياته أكثر سهولة ، أو كما يعبِّر عنها المصطلح الحديث « مستقلة عن الطبيعة » ، وهذه الديانة - إذا جاز التعبير- يتمُّ ممارستها والتعبُّد بها في : المصانع العملاقة ، ودور السينما ، والمعامل الكيميائية ، وصالات الرقص ، والأعمال الكهربائية . ورهبان هذه « الديانة » ودعاتها ، هم رجال المال والاقتصاد ، والمهندسون ، ونجوم السينما ، ورموز الصناعة ، والرياضة . والنتيجة الحتمية لهذا السباق المحموم للقوة والمتعة هو ظهور مجموعات متناحرة من البشر ، لا تتوانى عن تدمير منافسيها عند حدوث أي تعارُض أو تضارُب للمصالح . أما عن الناتج الثقافي لهذه الديانة فهو تكون تركيبة « إنسانية » تحكمها شريعة النفعية فقط ، والمحرِّك الأوحد لحكمها على

---

(١) انظر Islam at the Cross Roads لمحمد أسد ( ص ٢٩ ، ٣٠ ) .

الأمور وتحديد الخير والشر هو التقدُّم والتفوُّق المادي [١]

## مفهوم الدين في الحضارة الغربية :

أشار محمد أسد في كثير من كتاباته وفي أكثر من مرَّة أن المجتمعات الغربية هي مجتمعات « لادينية » ، وأوضح أن هناك أسبابًا كثيرة وراء ذلك ، أهمُّها الثلاثة التالية [٢] :

١ - الموروث الثقافي للحضارة الرومانية ونظرتها المادية البحتة للحياة الإنسانية وقيمته .

٢ - ثورة الطبيعة البشرية ضدَّ المفاهيم المسيحية التي تعتمد على الحرمان وازدراء وقمع الاحتياجات والغرائز الطبيعية للإنسان .

٣ - الطبيعة البشرية للإله في مفهوم الديانة المسيحية .

وسوف نَعْرِضُ في الصفحات التالية تحليلًا لوجهة نظر محمد أسد في أسباب هذه الطبيعة اللادينية أو المضادَّة للدِّين في المجتمعات الغربية :

## الموروث الثقافي للحضارة الرومانية :

السبب الأول الذي يكمن وراء الطبيعة اللادينية للمجتمعات الغربية هو الموروث الثقافي الكبير للإمبراطورية

(١) المرجع السابق ( ص ٤٤ ، ٤٥ ) .

(٢) المرجع السابق ( ص ٤٤ ) .

الرومانية وتأثيره في الحضارة الأوربية . ويَرَى محمد أسد أن « الحضارة الرومانية نظرت إلى الحياة من خلال منظورٍ ماديٍّ بَحْت » ، ويضيف كذلك : « أن الرومان لم يعرفوا الدِّين بالمرَّة ، وأن آلهتهم لم تكن إلَّا تقليدًا باهتًا للآلهة اليونانية القديمة ، ولم تعد كونها أشباحًا عديمة التأثير يتم الاعتقاد في وجودها استكمالًا للشكل الاجتماعي . ولم يسمح لهذه الآلهة بأي شكل من الأشكال التدخُّل والتفاعُل مع المجريات الحياتية للإنسان . وإنما يسمح لها فقط بإدلاء المشورة من خلال كَهَنَتِهَا ، ولكن لم يكن لها حق فرض معايير أخلاقية أو إدارة أفعال الإنسان بأي صورة من الصور . وهذه هي التربة التي نبتت منها الحضارة الغربية المعاصرة » (١)

فهذه الحضارة لا تنفي وجود الإله بالكلية ، ولكنها - ببساطة - لا تجد له نَفْعًا ولا وظيفة في سياق نظامها الفكري المعاصر . فالأفكار والموجودات تكتسب أهميتها في الفكر الغربي من خلال نَفْعِهَا وجَدْوَاهَا للعلوم التجريبية ، أو تأثيرها المباشر والملموس على الحياة الاجتماعية ، وحيث إن مسألة وجود الإله لا تنطبق بصورة مباشرة مع هذين المعيارين فقد تمَّ إسقاطه من دائرة الاهتمام الغربي . ويعلِّق أسد على هذا المفهوم بأن لسان حال الغرب يقول : « بما أننا لا نستطيع إثبات حقائق الخلق الإنساني ، وبَدْء الحياة ،

---

(١) المرجع السابق ( ص ٣٥ - ٣٧ ) .

والتغيرات بعد الموت من خلال العلم التجريبي والحسابات ، فإنه من الأجدى أن نركِّز كلَّ مجهوداتنا على تطوُّرنا ونموِّنا المادِّي والفكري ، ولا داعي لأن نسمح لأنفسنا أن نخضع للمورثات الأخلاقية أو القيم العقائدية التي بُنيت على احتمالات لم يثبتها الدليل العلمي » . ويخلصُ أسد إلى أن هذا المفهوم هو في جوهره مفهوم « لاديني » [(١)] .

## ثورة الطبيعة الإنسانية ضدَّ نظرة المسيحية الدونية للحياة الدنيوية :

يشير محمد أسد أن السبب الثاني وراء الطبيعة اللادينية للحضارة الغربية تكمن في العداء الطويل في أوربا بين الكنيسة والفكر الذي امتدَّ لعدة قرون ، مارست خلالها الكيانات الدينية سياسة القمع ضدَّ « الروح » في أوربا ، استنادًا إلى مفهوم ازدراء الحياة الدنيوية . ولقد أدَّت المفاهيم المسيحية السائدة في كتب الإنجيل مثل التنسُّك، والرهبنة ، والخضوع اللاإرادي للخطيئة ، ومفهوم السلبية مثل : « أَدِرْ لَهُ خَدَّكَ الآخر » ، وارتباط الجنس بالخطيئة ، وبطرد آدم وحواء من الجنة ( الخطيئة الأولى ) ، والخلاص منها بصلب المسيح ، أدَّت كل هذه المفاهيم إلى عدم النظر إلى الحياة الإنسانية على إنها مرحلة إيجابية في عمر الإنسان ، بل إلى ترسخ الاعتقاد أنها شرٌّ حتمي وعقبة في

---

(١) المرجع السابق ( ص ٣٥ - ٣٧ ) .

طريق نموّه الروحي . وبالطبع لم تشجّع هذه النظرة الدونية للحياة التقدُّم في العلوم الدنيوية ولا تطور الظروف المعيشية على الأرض . ومن ثَمّ عاشت أوربا حالة من الخمول الفكري استنادًا إلى هذا المفهوم المغلوط للوجود الإنساني .

وخلال فترة سيطرة الكنيسة المطلقة في العصور الوسطى لم يكن لأوربا أي دَوْرٍ يُذْكَرُ في تطوُّر البحث العلمي ، بل إنها فقدت كل صلاتها بالإنجازات الفكرية للحضارة اليونانية والرومانية القديمة التي نشأت منها الحضارة الأوربية . وعلى الرغم من ثورة العقل البشري أكثر من مرّة إلا أن نصيبه كان دائمًا مزيدًا من القمع . ويقف التاريخ شاهدًا على الصراع المرير بين الفكر والكنيسة في العصور الوسطى في أوربا .

وجاء تحرير الفكر الأوربي من أغلال الرقّ الكنسي لاحقًا في عصر النهضة ، ويرى محمد أسد أن الفضل في ذلك يرجع إلى التأثير الثقافي العربي الذي حدث خلال عدة قرون . فقد تعلَّم العرب كلَّ ما هو ذو قيمة في الحضارة اليونانية والهيلينسكية ، وأحيوا هذا التراث ، وأضافوا إليه الكثير خلال القرون الأولى من قيام الإمبراطورية الإسلامية .

فقد بدأت الحضارة الإسلامية في طرق أبواب أوربا المغلقة وذلك من خلال الحروب الصليبية على الشرق ، ثم من خلال التفوّق الفكري الإسلامي في كلٍّ من إسبانيا

وصقليَّة ، وكذلك عن طريق العلاقات التجارية مع كل من جنوة والبندقية القريبتين من الشرق . ومن خلال هذه الاتصالات الثقافية افتتحت أعين علماء ومفكرين أوربا على حضارة راقية ومتقدِّمة ومحبة للحياة ، وعلاوة على ذلك مليئة بالكنوز الثقافية القديمة التي فقدتها أو نسيتها أوربا منذ عصور طويلة . فما قام به العرب لم يكن مجرَّد إحياء للعلوم اليونانية القديمة ، فقد قاموا بإنشاء علم معرفي متكامل خاص بهم ، وأوجدوا أساليب للبحث العلمي والفلسفي لم تكن معروفة في ذلك الوقت . ثم قاموا بتوصيل كل ذلك إلى الغرب عن طريق عدَّة قنوات ، الأمر الذي كان له عظيم الأثر على أوربا . فمن خلال الحضارة الإسلامية بزغت شَمْسُ الفكر على الغرب من جديد ، وأشعلت فيه روح الحياة والتقدُّم . ونظرًا لأهمية هذه الفترة وتأثيرها في التاريخ الغربي فقد أطلق عليها المؤرِّخون Renaissance والتي لا تعني فقط النهضة ؛ وإنما الميلاد من جديد ، فقد كانت بمثابة ولادة جديدة للحضارة الغربية . ويرى محمد أسد أن التيارات الثقافية المتولِّدة من التقاء الغرب بالحضارة الإسلامية ساعدت على تولُّد قوة فكرية مكَّنته من مجابهة قوى القمع الكنسية (١) .

---

(١) المرجع السابق ( ص ٣٨ - ٤٠ ) .

## الطبيعة البشرية للإله في مفهوم الديانة المسيحية :

السبب الثالث وراء تكوُّن الفكر اللاديني في الغرب يرجع إلى المفهوم البشري للإله في الديانة المسيحية . ويوضِّح محمد أسد أن العامل الأساسي وراء عدم تجدُّد الروح الدينية في الغرب هو الاعتقاد بأن المسيح هو ابن الإله . ويشير أسد إلى أن مفكِّري الغرب لم يقتنعوا بعلاقة البنوَّة هذه كعلاقة حقيقية ، وإنما كعلاقة مجازية ، بمعنى تجسد رحمة اللّه لعباده من خلال المسيح . ولكن عموم المسيحيين بالطبع لم يفهموا العلاقة على هذا النحو حيث يتم فهم كلمة « ابن » بمعناها الحرفي وليس المجازي بالرغم مما يشوب هذا الأمر من غموض . وعلاقة البنوَّة هذه أدَّتْ إلى إضفاء صفة البشرية على الذات الإلهية ذاتها ، فقد تمَّ تصوير الإله على أنه رجلٌ عجوز ذو لحية بيضاء ، وتم تعزيزُ هذه الصورة من خلال أعمال فنيَّة كثيرة وقيِّمة ، وعليه فقد بقيت هذه الصورة راسخة في وجدان الأوربيين . وبالطبع لم تكن هناك إمكانية مناقشة هذا المفهوم الغريب خلال فترة السيطرة الكنسية ، ولكن خلال عصور التنوير التي تلتها لم يبد مفكرو الغرب اقتناعًا بهذا التصوُّر البشري للإله ، فانسحب عدم اقتناعهم على وجود الإله ثم على الدين بالكلية .

وتلى ذلك ظهور الثورة الصناعية والاتجاه إلى التقدُّم المادي

الذي أدَّى إلى تكوُّن فراغ ديني عند الغرب . ونظرًا لطغيان الطبيعة المادية على الحضارة الغربية ووجود الهوة الدينية انطلقت الحياة الغربية ثائرة على كل ما يربط الإنسان بعلاقة التثليث وكل ما يفرض أي نوع من القيود على الروح الإنسانية ، وأعلنت عداءها لكل أنواع السيطرة على هذه الروح . وانطلاقًا من خوفها من الاستعباد الروحي الذي خضعت له من قبل والمنطبع بطبيعة الحال في اللاوعي الأوربي أصبحت أوربا رَمْزًا لكل ما هو لاديني في المبدأ والتطبيق ، ومن ثمَّ عادت إلى أصولها العقائدية الرومانية القديمة [١] .

## تعالي الغرب على الإسلام والمسلمين :

لاحظ محمد أسد منذ وقت مبكِّر وجود صورة مشوَّهة للإسلام عند الغرب ، وأن هذه الصورة نتجت من خلال كتابات ومناقشات غير مُنْصِفَةٍ عن هذا الدين . هذا بالإضافة إلى تخلُّف المسلمين خلال المائتي عام الأخيرة والذي أدَّى بالطبع إلى تعزيز هذه الصورة المغلوطة . **ويمكن تلخيص رؤية الغرب للإسلام فيما يلي :**

« سبب تخلُّف المسلمين الأساسي هو الإسلام ، والذي لا يمكن اعتباره شريعة إلهية ولا يمكن مقارنته بالمسيحية واليهودية ، فهو عبارة عن توليفة من قانون الصحراء

(١) المرجع السابق ( ص ٤١ - ٤٣ ) .

والممارسات الجسدية والخرافات . هذا بالإضافة إلى كونه مجموعة من الأفكار العقيمة التي تمنع أتباعه من المشاركة في الأنظمة الاجتماعية المتقدمة ، وبدلًا من تحرير الروح الإنسانية من الغموض قام الإسلام على العكس بإحكام القيد عليها . ومِنْ ثَمَّ يفضل تحرير المسلمين من قيد الإسلام على وجه السرعة وتغذيتهم بروح ومنهج الحضارة الغربية ، فهذا هو الأفضل لهم ولسائر العالم كذلك » (١) .

ويَرَى محمد أسد أن التعالي الغربي على الإسلام هو مفهوم أصيل في الفكر الغربي ، ويسوق لنا في هذا المجال مثالًا على كيفية تناول العقلية الغربية لديانات أخرى مثل : الهندوسية والبوذية مثلًا ، أو أي ديانة أخرى حيث إن تناوله لها يختلف تمامًا عن أسلوب تعامُله مع الإسلام ، فيقرِّر محمد أسد هذه الحقيقة قائلًا :

« عندما يناقش الإنسان الغربي الهندوسية مثلًا أو البوذية فإنه يعي تمامًا الفارق الكبير بين فكر هذه الديانات وفكره . وقد تعجبه فكرة أو أخرى من أفكار هذه الديانات ، ولكنه يستبعد تمامًا إمكانية استبدال عقيدته بهذه العقائد . وبما أنه مقتنعٌ تمامًا باستحالة اتباعه لهذه العقائد مسبقًا ، فهو ينظر إليها على أنها ثقافات غريبة ويتعامل معها بهدوء ، بل وبتعاطف وتقدير في كثير من الأحيان . أما فيما يتعلَّق

(١) انظر The Road to Mecca ( ص ١٩٠ ) .

بالإسلام فهو بالطبع ليس بعيدًا عن مفاهيمه بُعد الهندوسية والبوذية ، ومن ثَمَّ تطفو على السطح مشاعر التحيُّز التي تهز هدوءه . وأحيانًا ما أتصوَّر أن قرب المبادئ الإسلامية من المفاهيم الغربية الأساسية قد يشكِّل تحدِّيًا للحياة الاجتماعية والروحية الغربية » (١)

ويمكن فهم روح التعالي التي يشعر بها الإنسان الغربي تجاه الإسلام من خلال الخلفية التاريخية والنفسية لعلاقة الغرب بالإسلام التي يحلِّلها محمد أسد كما يلي :

« حتى نستطيع أن نجد تحليلًا مقبولًا لهذا التعالي يجب علينا أن نطالع التاريخ وأن نحاول أن ندرس الخلفية النفسية للعلاقة القديمة بين الغرب والإسلام . فما يشعر به الغربيون اليوم تجاه المسلمين والإسلام هو نتاج تراكُم لمشاعر سلبيَّة تكوَّنت أثناء الحروب الصليبية » .

وتعتبر الحروب الصليبية هي أكبر وأعمق علامة في تاريخ الحضارة الغربية ؛ نظرًا لكونها أول وأنجح عمل تمكَّنت الحضارة الغربية من خلاله أن تعمل بصورة موحَّدة . ولا يمكن مقارنة الحروب الصليبية وتأثيرها بأي عمل آخر سابق أو لاحق في تاريخ الحضارة الأوربية ؛ حيث إنها أثارت حماسة عارمة اجتاحت القارة الأوربية بأسرها ، فأزالت كل العداوات القبلية والطبقية والقومية السابقة . وبعد أن كانت

---

(١) المرجع السابق ( ص ٤ ، ٥ ) .

أوربا مقسَّمة إلى مجموعات وأجناس متناحرة من قبائل الفرانكس والساكسونز والجيرمانز والنورمانز واللومباردز لا يربطها رابط سوى كونها مقسَّمة إلى دويلات تعتبر جميعها بقايا الإمبراطورية الرومانية القديمة ، إنها تعتنق الديانة المسيحية . ولكن رابطة الدِّين تم تقويتها من خلال الحروب الصليبية وأصبح هناك هدف تسعى من أجله أوربا كلها ، وهو إقامة الدولة المسيحية . وقد أخذ هذا الهدف شكلًا سياسيًّا دينيًّا ، ومِنْ ثَمَّ تكوَّن الكيان الأوربي الموحَّد . وفي نوفمبر عام ( ١٠٩٥م ) عندما حفَّزَ البابا أيربن الثاني الأوربيين كي يشنوا الحرب على « الكفار » الذين يحتلون الأراضي المقدَّسة ، كان بذلك - ربما دون أن يدري - يعلن ميلاد الحضارة الغربية الموحَّدة ويحدِّد سماتها .

ولعله من الغريب أن يبقى هذا التعالي والازدراء حيال الإسلام دفينًا في اللاوعي الأوربي حتى بعدما نبذت أوربا الدِّين بالكلية ، ولكن هذا لن يبدو عجيبًا إذا ما علمنا أن الشخص قد يبتعد تمامًا عن المعتقدات الدينية التي تكوَّنت لديه في مرحلة الطفولة ولكنه لا يفقد ارتباطه العاطفي ببعض مكوناتها ويحملها داخله بقية حياته ، وهذا بالتحديد ما حدث في الكيان الكلي للحضارة الغربية ، فما زال شبح الحروب الصليبية يحوم حول الغرب حتى هذه الأيام ، ويؤثر على كل ردود أفعاله تجاه الإسلام والمسلمين (١) .

---

(١) المرجع السابق ( ص ٤ - ٧ ) .

وينقد محمد أسد المفكرين الغربيين الذين عرفهم عن كثب متسائلًا :

« لماذا لم يحاول أيٌّ منهم فهم الإسلام ؟ أم أنهم اكتفوا بتكوين آرائهم على أساس مجموعة من المفاهيم والمعتقدات الخاطئة التي توارثوها من الأجيال السابقة ؟ هل ما زال الغرب تحت تأثير الفكر الروماني واليوناني القديم الذي قسم العالم إلى اليونان وروما من جهة وباقي الشعوب « البربرية » في الجهة الأخرى ؟ هل لا يزال هذا الفكر متخللًا في العقلية الغربية بحيث لا يمكن تغييره ، ولا يمكن معه بأي حال نسب أي قيمة إيجابية لكل ما يقع خارج نطاقها الثقافي ؟ » [١] .

ويلاحظ محمد أسد من خلال تحليله للحياة الدينية في أوربا أن المشاعر الدينية بدأت في الفتور منذ وقت طويل بينما بقي هذا الكره للإسلام . ولعل من أبرز الأمثلة على ذلك الفيلسوف الفرنسي المعروف فولتير الذي كان من أعدى أعداء الكنيسة في القرن الثامن عشر ، ولكنه مع ذلك كان يكن كرهًا شديدًا للإسلام ولرسوله الكريم محمد ﷺ ، وفي عقودٍ لاحقة بدأ المثقَّفون الغربيون دراسة الحضارات الأخرى بنوع من الحيادية ، ولكن مشاعر الكره الدفينة دائمًا ما كانت تطغى عند دراستهم للإسلام وتؤثر على حيادية

---

(١) المرجع السابق ( ص ٢ ، ٣ ) .

رؤيتهم وأفقدت دراساتهم الموضوعية والمنْهَجِيَّة العلمية . ومن ثَمَّ لا تزال تلك الهوة التي أحدثها التاريخ بين أوربا والإسلام قائمة ، وعليه فقد أصبحت كراهية الإسلام جزء لا يتجزَّأ من الفكر الأوربي (١) .

## محمد أسد ينقد الحضارة الغربية :

وينقد محمد أسد الحضارة الغربية فيما يتعلَّق بعدم قدرتها على الموازنة بين مطالب الإنسان الجسدية والاجتماعية وبين احتياجاته الروحية . فلقد لفظت الحضارة الغربية أخلاقياتها الدينية السالفة ولم تستطع إيجاد نظام أخلاقي بديل . وبالرغم من تقدُّمها في مجال التعليم إلا أنها لم تستطع التغلُّب على استعداد الإنسان للانسياق الأعمى خلف الشعارات التي يخترعها محترفوا التأثير على الجماهير أيًّا كانت غرابتها . وقد استطاعت هذه الحضارة الوصول بنظام المؤسَّسات إلى أعلى درجات الحرفية ، بينما عجزت الدول الغربية في ذات الوقت - كما يرى محمد أسد - في السيطرة على القوى العلمية التي أوجدها علماؤها مما جعل الاكتشافات العلمية تصل إلى حالة من الفوضى العالمية .

ونظرًا لافتقاره إلى الروح الدينية بالكلية لم يستطع الإنسان الغربي أن ينعم بنور العلم الذي أحدثه تقدُّمه

---

(١) انظر Islam at the Crossroads ( ص ٥٦ ) .

العلمي ، وهو بذلك ينطبق عليه الوصف القرآني :

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [ البقرة : ١٧، ١٨] .

ومن خلال غرورها الأعمى - كما يشير أسد في تحليله - تعتقد الشعوب الغربية أن حضارتها هي التي ستجلب النور والسعادة إلى العالم . وفكَّرت هذه الشعوب في القرنين الثامن والتاسع عشر أن تَنْشُرَ المسيحية في العالم ، ولكن هذه الحماسة الدينية قد فترت في الوقت الحالي ، فقد أصبح الدين بمثابة الموسيقى الهادئة الموجودة فقط في الخلفية في حياة الإنسان بحيث يسمح لها بمصاحبته دون التأثير الحقيقي في حياته ، ومن ثم تعمل الشعوب الغربية الآن على نشر فكرها المادي وأسلوب الحياة الغربي ؛ حيث إنها تعتقد أن جميع المشاكل الإنسانية يمكن حلُّها في المصانع والمعامل ومكاتب الإحصائيات .

ويَخْلُصُ محمد أسد في تحليله إلى أن إله الغرب في العصر الحديث لم تعد له طبيعة روحية ، بل أصبح ماديًّا فالإله الجديد هو « الراحة » . ومِمَّا لا شكَّ فيه أن التفكير الديني والمشاعر الدينية لا تزال تشغل البعض في الغرب الذين يحاولون محاولات مستميتة للتوفيق بين معتقداتهم وقيمهم الدينية وبين متطلَّبات الحضارة التي يعيشونها ،

ولكن هؤلاء لا يُمَثِّلُونَ إلَّا قلَّة في الغرب ، فالشخص الغربي العادي - كما يقرِّر أسد - سواء كان ديمقراطيًّا أو شيوعيًّا ، عاملًا بسيطًا أو عالمًا لا يؤمن إلَّا بشيء واحد فقط وهو التقدُّم المادي ، ويعتقد أنه لا هَدَفَ في الحياة سِوَى أن يجعلها أكثر سهولة . ومعابد هذه الديانة - كما يصفها محمد أسد - هي المصانع العملاقة ، ودور السينما ، والمعامل الكيميائية ، وقاعات الرقص ، والمشاريع الكهربائية والهيدروليكية . أما دُعاة هذه الديانة وسدنتها هم رجال البنوك والمهندسون ونجوم السينما ورواد الصناعة . ونشأ من هذا الاعتقاد لبس حول تعريف الخير والشر ، ونتج عنه كذلك النظر إلى كافة المسائل الاجتماعية والاقتصادية من منطلق النفعية . أما من الناحية الحضارية فقد أنتجت هذه الثقافة نوعية من البشر تعتمد تمامًا في توجُّهاتها على مبدأ النفعية ، وينطلق تقييمها للصواب والخطأ من منطلق التفوُّق المادي فقط .

ولا ينقص محمد أسد من أهمية التقدُّم المادي ولا يدَّعي عدم أهميته ؛ إذ يراه عاملًا هامًّا لتقدُّم الحياة على الأرض ، ولكنه لا يراه غاية في حدِّ ذاته ، ولا يراه وحده كفيلًا بتحقيق قَدْرٍ أكبر من السعادة للإنسان إلَّا إذا اقترن بالإيمان بالقيم المطلقة [١] .

---

(١) المرجع السابق ( ص ٧١ ، ٧٢ ) .

## ماذا يمكن أن يقدمَ الإسلام للعالم ؟

اعتنق محمد أسد الإسلام في سن صغيرة ، فقد كان في عامه السادس والعشرين عندما أشهر إسلامه ؛ حيث وجد في هذه الديانة السلام الحقيقي وهدوء النفس ، وأمضى بقية حياته - سبعون عامًا تقريبًا - في خدمتها .

تأثَّر محمد أسد بالتأخُّر الذي أَلَمَّ بالأمة الإسلامية أيما تأثُرٍ ، وأشار في أكثر من مناسبة أن الإسلام ليس مسؤولًا عن هذا الحال ، بل على العكس من ذلك ؛ فإن الإسلام على مدار التاريخ جعل أتباعه عظماء ، وليس العكس ! ولكن عندما يضعف إيمانهم وتصبح عبادتهم عادة وليست أسلوبَ حياة يتم اتباعه بكامل الوعي والإرادة يخبو بريق ابتكاراتهم ويفتر وميض حضارتهم شيئًا فشيئًا مفسِّحًا المجال للجهل والعقم الثقافي والحضاري [١] .

ما الذي يحدث للإسلام ؟ سؤال يطرحه محمد أسد . هل أصبح الإسلام بالفعل -كما يقول عنه أعداؤه- « قوة منهكة ؟ » هل قدَّم الإسلام كلَّ ما يمكن تقديمه للعالم بحيث لم يعد بإمكانه تقديم المزيد ؟

أوضح محمد أسد من خلال إجاباته عن هذه الأسئلة أن الحضارات الإنسانية مَثَلُهَا مثل الكائنات الحية ، تمر بفترات

---

(١) المرجع السابق ( ص ١٩٣ ) .

النُّمُوُّ التي يمرُّ بها الكائن الحي . فهي تولد ثم تمرُّ بمرحلة الشباب ، ثم مرحلة اكتمال النمو والإنتاج ، ثم يتبع ذلك الضعف والانحلال . ومثلها مثل النباتات التي تتحلَّل وتذوى في التراب ، تتحلَّل الحضارات وتخلي الساحة لحضارات أخرى وليدة . ولكن هل ينطبق هذا الوصف على الإسلام ؟ قد يبدو الحال كذلك للوهلة الأولى - كما يوضِّح محمد أسد - فمِمَّا لا شك فيه أن الإسلام شَهِدَ عصورًا من الازدهار عند بداية نشأته وفي مرحلة شبابه ، وكان مصدر إلهام البشر لكثير من الأعمال البطولية والتضحيات التي أدَّت إلى تحوُّلات في الدول وتغيير التشكيل الحضاري للأرض ، وبعدها أصابه الجمود ، ثم أصبح بعد ذلك كلمة خاوية لا معنى لها ، وها نحن نشهد عصر تدهور الإسلام واضمحلاله ، ولكن هل هذا كلُّ ما في الأمر - يسأل محمد أسد نفسه .

وإذا كنا حقًّا نؤمن أن الإسلام ليس مجرَّد حضارة وليس نتاجًا للفكر البشري ، بل هو القوة التي تصنع الحضارة ، هو نظام حياة متكامل أنزله اللَّه سبحانه وتعالى وعلى البشرية أن تتبعه في كل زمان ومكان ، إذا كنا نؤمن بذلك حقًّا فميزان الأمور يختلف تمامًا ؛ فالحضارة الإسلامية إنما هي نتاج نظام منشؤه الوحي ، ومن ثَمَّ لا ينطبق عليها ناموس الحضارات الأخرى ، فهي ليست مرتبطة بفترة زمنية محدَّدة . وما يبدو في ظاهره أنه اضمحلال للإسلام ليس في حقيقته سوى

موت وفراغ لقلوبنا نحن التي أصبحت صمَّاء ومفرغة بحيث لم يعد بإمكانها الاستجابة للمؤثرات الداخلية ، فما من أمارة تدل على أن الإنسانية بوضعها الحالي قد سبقت الإسلام بحيث لم يعد مناسبًا لها . فالحضارة الإنسانية لم تستطع الخروج بمبدأ الأخوَّة الإنسانية إلى حيز التطبيق ، ولم تستطع كذلك استيعاب مفهوم الأمة . ولم تستطع إفراز نسيج اجتماعي يمكن من خلاله التقليل من النزاعات والمشاحنات بين الأفراد إلى أقلِّ حَدٍّ ممكن . وعجزت هذه الحضارة أيضًا على حفظ كرامة الإنسان ، وإحساسه بالأمان ، وأمله الروحي ، وأخيرًا - وليس بآخر - سعادته . فبالرغم من التقدُّم الرائع الذي حققته البشرية إلَّا أنها تعجز تمامًا على مواكبة مفهوم الحضارة في المنهج الإسلامي (١) .

ومن خلال مقارنة مفهوم الغرب والإسلام لكل من القيم والعدل والحرية على المجالين الشخصي والاجتماعي يخلص محمد أسد إلى أن المفهوم الإسلامي لهذه القيم يفوق المفهوم الذي تطرحه الحضارة الغربية بكثير ويذكر في كتابه ما يلي :

« نحن نعتقد أن آداب الإسلام وأخلاقياته الفردية والاجتماعية ؛ كالعدل والحرية تتصف بالكمال وتفوق نظائرها في الحضارة الغربية بكثير ، ويؤكد هذا الاعتقاد الواقع الحالي للحضارة الغربية . فقد قضى الإسلام على

---

(١) انظر Islam at the Crossroads ( ص ٩٨ ، ٩٩ ) .

الكراهية بين الأجناس والأعراق ، وحقَّق المساواة والأخوَّة الاجتماعية ، بينما تنحصر رؤية الحضارة الغربية في أفق ضيق من العداء العرقي والقومي . فلم يعرف المجتمع الإسلامي الطبقية والصراع الطبقي قطُّ ، بينما يحفل تاريخ الغرب منذ مهده في الحضارتين اليونانية والرومانية القديمة وحتى عصرنا الحديث بالصراع الطبقي والكراهية الاجتماعية » [1] .

استنادًا إلى التحليل السابق يرى محمد أسد أنه من الممكن استعادة رونق الإسلام ولكن كيف ؟ وأيُّ طريق نسلك حتى نتغلَّب على هذه الأزمة ؟ يجيب محمد أسد على هذه الأسئلة ، وسوف نقوم بشرحها باستفاضة في فقرات لاحقة ، إن شاء اللَّه .

## هل يمكن أن يتجه الغرب للإسلام ؟

هناك الكثير من المؤشِّرات التي تدل على أن الغرب يتَّجه للتعاليم الدينية والاجتماعية للإسلام ، ويرى بعض المسلمين أن تحوُّلَ أعداد كبيرة من الأوربيين والأمريكيين للإسلام أصبح وشيكًا . وهذه الفكرة في حدٍّ ذاتها ليست بعيدة -كما يرى محمد أسد- حيث إن الإسلام بخلاف كافة الديانات السائدة حاليًا يلبي الاحتياجات الإنسانية والاجتماعية لأتباعه وليس هناك حدود لأطروحته للمجتمع الإنساني . علاوة على ذلك فقد أخبرنا نبي الإسلام محمد أن الإسلام سوف يدخل

(١) المرجع السابق ( ص ٧٢ ، ٧٣ ) .

في كل بيت - أي أنه ما من أهل بيت إلَّا وسيكون منهم مسلمون - ولكن محمد أسد - بكل أسف - لا يرى أن هذا الأمر قد أصبح وشيكًا .

ويتوقَّع محمد أسد أن تحوُّل الحضارة الغربية للإسلام لن يتم إلَّا بعد أزمات اجتماعية عنيفة تزلزل كيان الحضارة الغربية ومفهوم الحضارة لديها ، مما يجعلها تتقبَّل فكرة التحليل الديني للحياة . فما زال الغرب اليوم غارقًا في عشق إنجازاته المادية ، ولا يزال يعتقد أن الراحة والراحة فقط هي غاية في حد ذاتها وتستحق الكفاح في الحياة من أجل تحقيقها . وعلى الرغم من أن بعض المتفائلين من المسلمين يعتقدون أن مادية الحضارة الغربية ولفظها للدِّين تتناقص إلَّا أن الواقع يؤكد زيادة هيمنة هذا الاتجاه الفكري على منطقها وتوجهاتها . ويقرِّر محمد أسد أن الغرب لم يكن أبعد عن الإسلام منه الآن ، وعلى الرغم من أن عداوته للإسلام تبدو أقل ضراوة ، ولكن هذا لا يرجع إلى فهمه للإسلام وتقديره له ، ولكن يرجع إلى ضعف العالم الإسلامي وعدم قدرته على التغلغل في أواصره . ويذكر محمد أسد التعليق التالي في هذا الشأن :

« قد يبدو للوهلة الأولى أن عدم الاستقرار الاجتماعي والاقتصادي المتزايد ، وكذلك الحروب العالمية والاكتشافات العلمية التي تقود الإنسان إلى المجهول قد تجعل الغرب المادي المتكبِّر يخرج من اعتزازه بنفسه باحثًا عن الحقيقة والراحة

الروحية ومن ثم تصبح الدعوة للإسلام ممكنة في الغرب . ولكن هذا التحوُّل لا يزال في طيات المستقبل وهذا الاعتقاد خطير ؛ لأنه مبني على تفاؤل زائد وخداع للنفس . ومن ثم فإن اعتقاد المسلمين أن الغزو الروحي للغرب أصبح وشيكًا لا يعدو كونه أمل يراود خواطرهم ولا يزيد عن كونه تصورًا آخر قد يكسوه بعض العقلانية لمفهوم المهدي الذي سيظهر فجأة ويحقق النصر للقوى الإسلامية المشرذمة . وهذا الاعتقاد خطير ؛ لأنه سهل ومبهج ويعمل على إبعادنا عن إدراك واقعنا الثقافي المتردي . ففي الوقت الذي يتنامى فيه تأثير الحضارة الغربية على العالم الإسلامي ننعم نحن بالنوم ، بينما ينخر الفكر الغربي في صلب مجتمعاتنا في كل مكان . فالرغبة في نشر الإسلام شيء ، وبناء آمال واهية على هذه الرغبة شيء آخر » [١] .

* * *

(١) المرجع السابق ( ص ٦١ ، ٦٢ ) .

# الفَصْلُ الثَّاني

## اليهودية والمسيحية والإسلام

### تمهيد :

يتحدَّث محمد أسد ( ليوبولد فايس سابقًا ) عن نشأته قائلًا :

« تعلَّمتُ منذ صغري في المدرسة أنَّ الإسلام هو أحدُ المراحل التاريخية في التاريخ البشري ، وأنَّ تعاليم محمد الروحانية والأخلاقية ( التي لم أكن أعرف شيئًا عنها ) لا تستحقُّ الاحترام ، ومن ثَمَّ لا داعي لذكرها على الإطلاق ، وبالطبع ليس هناك مجالٌ لمقارنتها بالديانتين اللتين أعرفهما ، وهما المسيحية واليهودية » .

وبالرغم من ذلك اعتنق هذا الشابُّ الإسلامَ وهو في السادسة والعشرين من عُمْرِهِ ، فقد وَجَدَ في الإسلام المعنى الحقيقي للحياة والسلام الحقيقي للعقل والرضا الروحي . وقد أمضى باقي عمره - أي قرابة السبعين عامًا - في خدمة الإسلام .

وينحدر محمد أسد من عائلة يهودية محترمة تتصف بحبِّ العلم ، وقد تربَّى في بيئة مسيحية ؛ مِمَّا أَهَّلَهُ لكي يكون على دراية كاملة بالديانتين اليهودية والمسيحية . ومع ذلك فقد اعتنق الإسلام ! فما السبب وراء ذلك ؟ هذا

ما يناقشه هذا الفصل حيث يعرض وجهة نظر محمد أسد في الديانات الأخرى .

## اليهودية :

ينحدر محمد أسد من عائلة يهودية أصيلة ، وكان اسمه قبل الإسلام ليوبولد فايس (Leopold Weiss) . وفي صغره كان تحت إصرار والده يواظب على دراسة النصوص الدينية ساعات طويلة كل يوم ، وهكذا وجد نفسه وهو في سن الثالثة عشرة يقرأ العبرية ويتحدَّثها بإتقان ، دَرَسَ التوراة في نصوصها الأصلية ، وأصبح عالماً بالتلمود وتفسيره ، ثم انغمس في دراسة التفسير المعقَّد للتوراة المسمَّى ( ترجوم ) ، فدرسه وكأنما يهيِّئ نفسه لمنصب ديني [(١)] .

كان إنجازه المدهش يَعِدُ بتحقيق حلم جده الحاخام النمساوي بأن تتصل بحفيده سلسلة من أجداده الحاخامات ، ولكن هذا الحلم لم يتحقَّق ، فبالرغم من نبوغه في دراسة الدِّين - أو ربما بسببه - نمت لديه مشاعر سلبية تجاه جوانب كثيرة من العقيدة اليهودية ، لقد رفض عقله ما بدا من أن الربَّ في النصوص التوراتية والتلمودية مشغولٌ فوق العادة بمصير أمة معينة ، وهم اليهود بالطبع . لقد أبرزت النصوص الربَّ لا كخالق وحافظ لكل خَلْقِهِ من البشر بل كربٍّ قَبَلِيٍّ يُسَخِّرُ كلَّ المخلوقات لخدمة الشعب المختار .

---

( ١ ) انظر The Road to Mecca ( ص ٥٥ ) .

لم يؤدِّ إحباطه من الديانة اليهودية في ذلك الوقت إلى البحث عن معتقدات روحية أخرى ، فتحت تأثير البيئة اللاإرادية التي يعيش فيها وجد نفسه يندفع - ككثير من أقرانه - إلى رفض الواقع الديني وكل مؤسَّساته ، فالدِّين من وجهة نظرهم لم يكن إلَّا مجموعة من القواعد الصارمة والمقيِّدة للحرية [1] .

## محمد أسد والحركة الصهيونية :

زار محمد أسد القدس لأول مرَّة في صيف عام ( ١٩٢٢م ) بدعوة من خاله دوريان الذي كان يعمل طبيبًا نفسيًّا ، وكان عمر محمد أسد حين ذاك ( ٢٢ ) عامًا . ولقد أصبحت هذه الرحلة والفترة التي قضاها في القدس بمثابة نقطة التحوُّل في حياته . ونتيجة لاتصاله المباشر بالمسلمين أدرك كذب المقولة الشهيرة التي تعلَّمها في صغره في المدرسة ، وكان يعتقد في صحتها سابقًا ، وهي « أن الإسلام قد انتشر بالسيف والنار » . وسرعان ما أدرك أن الوسط الاجتماعي الذي نشأ به لم تكن لديه صورة صحيحة عن الإسلام ، وأن مجتمعه يرفض الحديث أو الكتابة عن الإسلام بصورة إيجابية .

قابل محمد أسد أثناء إقامته بالقدس السيد أوسيشكين رئيس الحركة الصهيونية ، وكذلك الدكتور شائيم ويزمان

---

( ١ ) المرجع السابق ( ص ٥٦ ) .

الزعيم الحقيقي للحركة الصهيونية وتعتبر الحركة الصهيونية هي نواة الدولة الإسرائيلية التي يحاول أتباعها إنشاء دولة تقوم على القوة والذعر ، ويجعلون منها معقلًا لليهودية على أرض فلسطين والدول الإسلامية المجاورة . ووفقًا للتعاليم اليهودية لا يمكن قيام هذه الدولة إلا بما يسمَّى بـ « مَعْبَد سليمان » والذي يجب إنشاؤه على أنقاض المسجد الأقصى ، مسرى النبي الكريم محمد ، والذي يعظِّمه المسلمون نظرًا لمكانته التاريخية والدينية وارتباطه بحادثة الإسراء الجليلة .

قابل ليوبولد عام ( ١٩٢٢م ) السيد أوسيشكين رئيس الحركة الصهيونية وكذلك الدكتور شائيم ويزمان الزعيم الحقيقي للحركة الصهيونية ، وقد أبدى أثناء حديثه مع د . ويزمان تعاطُفه مع العرب الفلسطينيين ، ولاحظ ليوبولد كذلك أنه في عام ( ١٩٢٢م ) كان عدد الفلسطينيين العرب الموجودين في فلسطين يفوق عدد اليهود ، ومن ثَمَّ فإن فلسطين أرض عربية وليست يهودية .

وشعر ليوبولد أن فكرة المستعمرة اليهودية في فلسطين هي قضية مصطنعة وملفَّقة ، وعلاوة على ذلك فهي تُهَدِّدُ بانتقال كل التعقيدات والمشاكل الأوربية غير القابلة للحلِّ إلى الأراضي العربية ، والتي من الممكن أن تكون أكثر أمنًا وسعادة بدون سكانها الجدد . ولاحظ ليوبولد أيضًا أن قدوم اليهود إلى أرض فلسطين لم يكن كعودة الغريب

إلى دياره ، وإنما عودة من يرغب في أن يجعلها أرضه عنوة مقتنعًا بالفكرة الأوربية وبأهدافها وأساليبها ، فلم يزيدوا عن كونهم غرباء ضجَّت بهم أسوار المدينة . ومن ثم لم ير محمد أسد أي غضاضة في مقاومة العرب لفكرة الوطن اليهودي في قلب بلادهم . ويروي محمد أسد علاقته بالحركة الصهيونية كما يلي :

« بالرغم من نشأتي اليهودية تكوَّنت داخلي معارضة لفكرة الصهيونية . وبعيدًا عن تعاطفي الشخصي مع العرب فإني أعتقد أن عمل المهاجرين اليهود غير أخلاقي ، حيث يأتون بأعداد كبيرة من الخارج تحميهم القوات الأجنبية ؛ حتى يصبحوا أغلبية ، ويطردوا أصحاب الأرض الذين قطنوها منذ بداية التاريخ ، وكنت أعرب عن موقفي المساند للعرب كلما أثيرت المناقشة في هذا الموضوع ، وبالطبع كان ذلك كثيرًا ما يحدث » (١) .

وكانت نسبة العرب لليهود عام ( ١٩٢٢م ) خمسة إلى واحد كما يشير محمد أسد ، ومن ثَمَّ فهي بلدٌ عربي أكثر من كونها بلدًا يهوديًا (٢) وقد أعرب أسد عن وجهة نظره هذه خلال مناقشته مع الدكتور شائيم ويزمان زعيم الحركة الصهيونية موضِّحًا معارضته للمخطَّطات الصهيونية تجاه السكان العرب . فأجابه ويزمان بأن فلسطين هي أراضٍ

---

(١) المرجع السابق ( ص ٩٣ ) .

(٢) المرجع السابق ( ص ٩٢ ) .

يهودية وأن ما يقوم به اليهود إنما هو استعادة أرضهم التي سُلبت منهم ، فأجابه محمد أسد قائلًا :

« لقد كان اليهود بعيدًا عن فلسطين ما يزيد عن ألفي عام ، وقبلها كانوا يحكمون أجزاء من البلاد لفترة لا تزيد عن الخمسمائة عام ، ألا ترى أنه من حق العرب استنادًا إلى ذات المنطق أن يطالبوا بحقهم في إسبانيا ، حيث انهم حكموها لما يزيد عن السبعمائة عام ولم يفقدوها بالكامل إلا منذ خمسمائة عام مضت فقط [1] ولم يأت العبريون إلى فلسطين إلا غزاة ، ومن قبلهم جاء الساميون وبعض القبائل غير السامية ، وقبلهم العموريين والعدنانيون وقدماء الفلسطينيون والمؤابيون والحيثيون ، وقد استمرت هذه القبائل في المعيشة في فلسطين أثناء الحكم اليهودي في عهد مملكة إسرائيل ويهوذا . وما كان العرب الذين يقطنون سوريا وبعد ذلك فلسطين بعد غزوها إلَّا أعدادًا قليلة ، بينما يشكل أغلبية السكان أهل هذه القبائل الذين تعربوا نتيجة

---

(١) أقام العرب في إسبانيا حكومة ودولة لما يقرب من ثمانمائة عام ، وبقوا في البلاد بعد سقوط غرناطة كمجموعة عرقية تحت الحكم المسيحي لما يقرب من مائة وعشرين سنة أخرى . ونتيجة لأعمال الثأر والسلب والتعذيب والقتل والإعدام التي قامت بها محاكم التفتيش المسيحية ضد السكان غير المسيحيين تم إجلاء ما يقرب من ( ٣٥٠٠٠٠٠ ) مسلم ويهودي من شبه الجزيرة الأيبرية إلى مناطق شمال إفريقيا والبلقان وأماكن أخرى من العالم . وفي عام ( ١٦١٠م ) أعلنت المحاكم المسيحية نجاحها في مهمتها وإخلاء إسبانيا من كل المهرطقين الكفار ( المسلمين واليهود ) .

لمعيشتهم بها ، وقد دخلت أعداد منهم في الإسلام على مدار العصور ، بينما بقي بعضهم على ديانته المسيحية »[١] .

## المسيحية :

كان في الأعوام المبكِّرة من شبابه بعدما أصابه الإحباط وخيبة الأمل في العقيدة اليهودية التي ينتمي إليها قد اتجه تفكيره إلى المسيحية بعد أن وجد أن المفهوم المسيحي للإله يتميَّز عن المفهوم التوراتي ؛ لأنه لم يقصر اهتمام الإله على مجموعة معيَّنة من البشر ترى أنها وحدها شَعْبُ اللّٰه المختار ، وعلى الرغم من ذلك كان هناك جانبٌ من الفكر المسيحي قلَّل في رأيه إمكانية تعميمه وصلاحيته لكل البشر ، ألا وهو التمييز بين الروح والبدن – أي بين عالم الروح وعالم الشؤون الدنيوية – وبسبب تنائي المسيحية المبكر عن كل المحاولات التي تهدف إلى تأكيد أهمية المقاصد الدنيوية ، كفت من قرون طويلة في أن تكون دافعًا أخلاقيًا للحضارة الغربية ، كما أن رسوخ الموقف التاريخي العتيق للكنيسة في التفريق بين ما للرب وما لقيصر نتج عنه ترك الجانب الاجتماعي والاقتصادي يعاني فراغًا دينيًا ، وترتَّب على ذلك غياب الأخلاق في الممارسات الغربية السياسية والاقتصادية مع باقي دول العالم ، ومثل ذلك إخفاقًا لتحقيق ما هدفت إليه رسالة المسيح أو أي دين آخر[٢] .

---

(١) انظر The Road to Mecca ( ص ٩٤ ، ٩٥ ) .

(٢) المرجع السابق ( ص ١٤٠ ) .

فالهدف الجوهري لأي دين هو تعليم البشر كيف يدركون ويشعرون ، بل كيف يعيشون معيشة صحيحة وينظمون العلاقات المتبادلة بطريقة سوية عادلة ، وإن إحساس الرجل الغربي أن الدين قد خذله جعله يفقد إيمانه الحقيقي بالمسيحية خلال قرون ، وبفقدانه لإيمانه فَقَدَ اقتناعه بأن الكون والوجود تعبير عن قوة خلق واحدة ، وبفقدان تلك القناعة عاش في خواء روحي وأخلاقي ، وفي ذلك يقول محمد أسد :

« إن العالم اليوم يثور ضد المسيحية ويبتعد عن تعاليمها الأصلية التي جاء بها السيد المسيح ، فكيف يدَّعي المجتمع المسيحي اليوم أنه مسيحي ؟ وكيف يتوقَّع أن يتغلَّب على واقعه الأخلاقي المتدني دون الرجوع إلي الإيمان القوي والعقيدة الراسخة ؟ » (١) .

ويرى محمد أسد أن السبب في التوجه الغربي المعادي للدين في الحضارة الغربية الحديثة قد نشأ من مفهوم المسيحي للعلاقة بين الجسد والروح ، وكذلك للنظرة البشرية للإله فقد أدَّت هذه المفاهيم إلى تكوَّن عداءٍ بين الكنيسة وبين المفكِّرين الأوربيين ، وقد أخذ هذا العداء منعطفًا خطيرًا في النهاية وأوصل أوربا الآن إلى التحرُّر من الكنيسة بالكلية والبُعد عن كلِّ ما يمت للدين بصلة . ثم تعدَّت هذه الروح الغربية كل الحدود في معاداتها للروحانيات

(١) المرجع السابق ( ص ١٤٠ ، ١٤١ ) .

وكل ما يمكن أن يفرض قيودًا روحية على الإنسان . ونظرًا للخوف الدفين في اللاوعي من العودة إلى سالف عهدها من القيود الروحية توَّجت أوربا نفسها بطلًا لكل الأعمال والأفكار التي تتعارض مع الدين ، ومن ثَمَّ رجعت إلى تراثها الروماني . وقد أسلفنا شرح هذه النقطة باستفاضة في الفصل الأول .

## حوار مع قسيس من الجزويت :

قابل محمد أسد في رحلته الأولى إلى الشرق الأوسط قسيس تبشيري من الجزويت وهو القس بادر فليكس ، وكان قادمًا لتدريس التاريخ في كلية بالإسكندرية . وقد أتاحت لهما الرحلة على ظهر السفينة أن يتحدَّثا باستفاضة عن موضوعات شتَّى تتعلَّق بالمصير الإنساني ومعنى الحياة ، وكذلك العلاقة بين الروح والجسد . وخلال هذا الحوار أبدى محمد أسد معارضته للأفكار المسيحية الأساسية .

أشار الأب فليكس في حديثه أن الغرائز الإنسانية ما هي إلَّا البقايا الحيوانية في النفس البشرية ، أما الروح فهي الجزء الرباني من النفس البشرية . فالنفس تَسْعَى إلى النور المتمثل في الروح ، بينما تعوقها المادة التي تتمثل في مكوِّنات الجسد واحتياجاته نتيجة للخطيئة الأولى [1] وتهدف التعاليم

(١) وفقًا للعقيدة المسيحية يرزح الإنسان تحت عبء الخطيئة الأولى التي ورثها من آدم وحواء ، ومن ثَمَّ فإن حياة الإنسان ينظر إليها - من الناحية =

المسيحية - كما يقول محمد أسد - إلى تحرير الإنسان من العوارض الشهوانية الثانوية وقصيرة الأجل ؛ حتى يتمكّن من الرجوع إلى تراثه الروحي . وقد ردَّ محمد أسد على هذه الأفكار كما يلي :

« ربما تكون على حق أيها الأب فليكس ، ولكن لابد وأن هناك خطأ في التمييز بين ما هو ضروري وثانوي في احتياجات الإنسان . وكذلك في الفصل بين الجسد والروح . فلا أستطيع أن أوافقك في إرجاعك كل احتياجات الإنسان الغريزية إلى الجسد إلى مصيره الأرضي . فما أحلم به شيء يخالف ذلك فأنا أحلم بأن أصل إلى نظام حياة يكفل للإنسان أن يحيا كإنسان متكامل يحيا بالروح والجسد معًا . أحلم بنظام يكفل للإنسان أن يحقق التوافق

= النظرية على الأقل - على أنها سلسلة من الأسف . وهذه الحياة كما يرى محمد أسد ساحة قتال بين الخير متمثلًا في السيد المسيح والشر ممثلًا في الشيطان . ويحاول الشيطان عن طريق غرائز الجسد أن يحول دون وصول الإنسان إلى النور الأبدي . وفي حين يملك المسيح الروح لا يعدو الجسد أن يكون ملعبًا للشيطان يمارس فيه فنونه . وبتعبير آخر فإن عالم المادة هو عالم الشيطان ، وعالم الروح هو عالم الخير الرباني . فكل ما هو مادي - أو شهواني - كما تطلق عليه التعاليم المسيحية - في طبيعة الإنسان إنما هو ناتج عن خطيئة آدم واستجابته للنصيحة الشيطانية التي أسداها إليه ملك الظلمات والماديات . ونتيجة لذلك فإن الإنسان كي يصل إلى الخلاص والنجاة عليه أن يغلق قلبه بالكلية أمام عالم الجسد ويتوجّه إلى المستقبل وهو العالم الروحاني حيث يتم تطهير الخطيئة بصلب المسيح على الصليب . انظر Islam at the Crossroads ( ص ٢٤ ، ٢٥ ) .

لذاته دون أن يكون هناك صراع مستمر بين الروح والحواس ، نظام يتيح للإنسان أن يكون وحدة واحدة يمكن أن يقرر مصيره من خلالها » (١)

شغلت هذه الأفكار بال محمد أسد لفترة طويلة حتى وجد في الإسلام ضالته المنشودة .

## الإسلام :

اعتنق محمد أسد الإسلام في سن مبكرة ، وكان من أكثر الأمور التي جذبتيه للإسلام هو الترابط الداخلي للتعاليم الأخلاقية للقرآن الكريم ، وكذلك إمكانية التطبيق العملي لتعاليم الإسلام . ويرى محمد أسد أن القرآن الكريم لا يدعو الإنسان إلى الطاعة العمياء للإله ، ولكنه يدعوه إلى التفكُّر ، ولا يقف بعيدًا متفرِّجًا على مصير الإنسان ولكنه « أقرب إليه من حبل الوريد » . ولا يضع القرآن الكريم - والإسلام عمومًا - حدودًا بين الإيمان والسلوك الاجتماعي للإنسان . ولعلَّ أكثر ما جذبه للإسلام هو أنه لم يصوِّر الحياة على أنها صراعٌ دائم بين المادة والروح ، وأن السبيل الوحيد للوصول إلى النور ( الحق ) هو تحرير الروح من رغائب الجسد . وقد نَهَى النبيُّ عن الرهبنة وكَبْتِ رغبات الجسد والتضحية بها ، حيث قال في أكثر من حديث شريف : « **لا رهبانية في الإسلام** » . فينظر الإسلام نظرة

---

(١) انظر The Road to Mecca ( ص ٧٧ ، ٧٨ ) .

إيجابية إلى غريزة حب البقاء لدى الإنسان ، بل يصوِّرها - إذا ما تمت من خلال نطاقها السليم - على أنها عمل أخلاقي يجازى عليه المرء بالثواب ، وكأن لسان حال الإسلام يقول للإنسان : إنه لن يمكنك أن تعيش حياة كاملة فحسب ، بل أنت مجبورٌ على أن تفعل ذلك [١] .

ويشرح محمد أسد فهمه التدريجي للإسلام كما يلي :

« بدأت تتكوَّن داخلي صورة متكاملة للإسلام ، وتنامى اقتناعي به بشكل فاصل ، وكان في بعض الأحيان يفزعني . ولعلَّ أفضل وصف لعملية تغلغُل الإسلام داخلي هو وصفها بخاصية الانتشار الأسموزي كان اقتناعي الفكري بالإسلام دون وعي مني ، فكل معلومة كنت أعرفها عن الإسلام خلال السنوات الأربع السابقة كانت لا شعوريًّا تزيد من قناعتي به . وكانت صورة الإسلام تتمثَّل أمامي كقطعة معمارية رائعة تتناغم أجزاؤها وتتكامل دون نقص أو عيب ، وهذا التوازن يضفي على المرء إحساسًا بالراحة ؛ لأن كل شيء قد وضع في مكانه الصحيح . منذ ثلاثة عشر قرنًا من الزمان [٢] وقف شخص قائلًا : ما أنا إلَّا رجلٌ فانٍ ، ولكن الذي خلق الكون قد أرسلني برسالة لكم كي يكفل لكم حياة تتوافق مع الكون الذي خلقه . وقد أمرني أن أذكِّركم بوجوده وبعليائه وبمطلق قوته ، وقد أُرسلتُ

(١) المصدر السابق ( ص ٣٠١ ) .

(٢) كتب محمد أسد كتابه The Road to Mecca عام ( ١٩٥٢م ) .

لأضع أمام أعينكم نظامًا أخلاقيًا متكاملًا ، فإذا قبلتم هذه التذكرة وهذا النظام الأخلاقي فاتبعوني . وهذا هو جَوْهَرُ الرسالة المحمدية » (١) .

## تميّز التعاليم الإسلامية (٢) :

كان لقراءات محمد أسد المبكرة في مجالات الفلسفة والديانات والتاريخ عظيم الأثر في تعميق فهمه وإدراكه للمبادئ الفكرية لديانات العالم المختلفة . بدأ محمد أسد رحلته الفكرية في هذا المجال - مثله مثل الكثير من رجال الفكر - بتكوين سلوك معين حيال الدين ، حيث إن الإنسان غير قادر أن يصل بنفسه إلى تفسير الكثير من الحقائق الكونية مثل الحياة والميلاد والموت ، وكذلك حقائق الأبدية واللانهائية وغيرها من الأمور التي يقف العقل حائرًا أمام حصونها المنيعة . **وعندها لا يملك الفكر إلا أن يسلك إحدى سبيلين لا ثالث لهما :**

**أولهما** : أن يضع جانبًا - أي محاولة - لفهم الحياة بصورة كلية ، ويلجأ في بحثه عن الحقيقة إلى تفسير ما يمكن رؤيته فقط ، ومن ثَمَّ تنحصر كل تحليلاته ومعارفه في هذه الحدود فقط ، فيستطيع أن يفهم بعض ملامح وجوانب

---

(١) المصدر السابق ( ص ٣٠١ ) .

(٢) النقاط التي سيتم مناقشتها في هذا الجزء يمكن مراجعتها في كتاب محمد أسد Islam at the Crossroads ( ص ١٤ - ٢٧ ) .

من الحياة والتي قد تتزايد في الكمّ والوضوح طبقًا لزيادة المعرفة الإنسانية ، ولكنها لا تعدُو كونها بعض الجوانب والأجزاء من الحياة والطبيعة ، حيث يعجز فكره عن إدراك الأمور بصورة كلية ؛ لأن الإدراك الكلي يتطلّب إمكانيات فكرية تفوق قدرات الفكر البشري . وهذا هو المسلك الذي تسير فيه العلوم الطبيعية .

أما **المسلك الثاني** - والذي قد يحدث موازيًا للمسلك الأول - فهو المسلك الديني والذي يقود الإنسان عن طريق غريزته الدينية أن يدرك المعنى الكلي للحياة عن طريق الاقتناع بوجود قوة عليا ، قوة الخالق التي تتحكّم في الكون وفقًا لخطّة مسبقة لا يمكن للعقل البشري أن يلم بتفاصيلها ومفرداتها . ولا يلغي هذا التفسير بالضرورة الفضول المعرفي عند الإنسان ورغبته في دراسة وفَهْم ما يمكن استيعابه من بعض جوانب الطبيعة والحياة . فصاحبُ العقيدة يدرك أن ما يحدث حوله وما يحدث داخله لا يمكن أن يكون نتاج قُوَى عَمْيَاء تفعل ما تفعله دون وَعْيٍ أو هَدَفٍ ، ومن ثَمَّ فهو جزءٌ من منظومة كليَّة للكون .

ويشير محمد أسد أنه من خلال هذا الإدراك فقط يستطيع الإنسان أن يضع نهاية للصراع الأبدي بين النفس الإنسانية ومفردات الكون من حوله والتي تسمَّى الطبيعة . حيث يجد الإنسان نفسه بكل ما تحمله من تركيبة معقَّدة تسمَّى الروح ، وبكل ما يختلج داخلها من خوف ورغبة

ومن مشاعر وتوقُّعات وشكوك يجد نفسه يقف في مواجهة الطبيعة بما تحمله هي أيضًا من سخاء وقسوة ومن أمان ومخاطر ، تمتزج في تكوين عجيب متشابك ، وتعمل وفق نظام مغاير تمامًا لنظام العقل البشري ، ومن ثم يعجز عن فهمها ؛ ولذا لم يستطع الفكر ولا الفلسفة ولا العلم التجريبي أن يصل إلى إنهاء الصراع بين الإنسان وبين الطبيعة . وهنا تظهر أهمية الدِّين فمن خلاله فقط يدرك الإنسان أنه وحدة من هذا الكون المتكامل ، والذي يعمل وفق ناموس أبدي دقيق ، وينتج عن هذه القناعة والإدراك الداخلي للإنسان المؤمن إحساس قوي وعميق بالأمان .

ويؤكِّد محمد أسد في تحليله أن هذا التأثير الإيجابي للدِّين على النفس الإنسانية يحدث نتيجة لاعتناق الديانات السماوية على وجه العموم دون تخصيص شريعة بذاتها ، ولكن الإسلام وحده يتعدَّى هذه المرحلة الأولية ، ويصل بالإنسان إلى ما هو أعمق من هذا الوعي والإدراك . فمن خلال الإسلام لا يدرك الإنسان فقط أن الكون وحدة واحدة وأنه أحدُ مفرداتها ؛ لأن الكون خلق من مصدر واحد ، وإنما يقدِّم الإسلام للإنسان أيضًا النظام العملي الذي يمكن من خلاله أن يتفاعل وينتج في الكون من خلال الحدود التي خطَّها وبيَّنها له كجزء من نظام الحياة على الأرض محققًا التوافق بين أفكاره وأفعاله وبين وجوده وضميره . ولا يفرض الإسلام على أتباعه نَبْذَ الحياة الدنيوية

حتى يصلوا إلى هذا التوافُق ، ولا يخص البعض بأسرار النقاء الروحي ، ولا يجبر العقل كذلك على الاقتناع بمعتقدات لا يمكن فهمها ولا تفسيرها حتى يضمن النجاة والخلاص ، فكل هذه المبادئ بعيدة تمامًا عن الإسلام . فالإسلام ليس نظامًا روحيًا غامضًا ولا فلسفة ، فهو - وببساطة شديدة - نظام حياة يتوافق مع قوانين الطبيعة ، أنزله اللَّه على خلقه ، وأهمُّ ما يُمَيِّزُ هذا النظام هو التناغُم بين الجانب الروحى والمادي للوجود الإنساني . ولا تضمن التشريعات الإسلامية المصالحة الكاملة بين هذين الجانبين من الوجود الإنساني فقط ، بل تعمل على تأكيد ضرورة تلازُمهما كمقوِّمٍ أساسي من مقوِّمات الحياة . ويضرب محمد أسد مثالًا على ذلك بالصلاة حيث تتطلب توافقًا بين التركيز الروحي والحركات الجسدية .

وتؤكِّد التعاليم الإسلامية أن الغاية من وجود الإنسان على الأرض هى عبادة الخالق في كافَّة مناحي الحياة ، وهنا يشير محمد أسد أن هذه الغاية لا يمكن أن تتحقَّق إذا ما نحن قسَّمنا حياتنا إلى نصفين : نصف الروح ونصف الجسد ، فغاية الخلق لا تتحقَّق إلَّا من خلال ارتباطهما الوثيق في ضميرنا وأفعالنا حتى يشكِّلا وحدة ثنائية متناغمة . ويختلف الإسلام عن غيره من الشرائع ، استنادًا إلى مفهوم الوحدة في الوجود الإنساني ، حيث إن الشريعة الإسلامية لا تسعى إلى تنظيم العلاقة الروحية بين الإنسان والخالق

فقط ، بل تنظِّم العلاقة الحياتية بين الإنسان ومَنْ حَوْلَهُ في الكون . فلا يزدري الإسلام الحياة على الأرض ، ولا يراها عديمة الفائدة ، ولا ينظر إليها فقط على أنها معبر للآخرة وصورة باهتة منها ، بل ينظر إليها على كونها فترة إيجابية يجب أن يحياها الإنسان ويستفيد منها .

ويوضِّح محمد أسد الفَرْقَ بين الإسلام والديانات الأخرى فيما يتعلَّق بمبدأ كمال الإنسان ، [1] وهل هو جائز في الحياة الدنيا ؟ وتختلف نظرة الإسلام إلى الرغبات الإنسانية عن الديانات الأخرى ، فهو لا يرى ضرورة قمعها أو تأجيلها ، ولا يصفها بالدونية مثل المسيحية ، وهو كذلك لا يعد بسلسلة من التوالد التي تحدث وفق خطط عليا كما في الهندوسية . ويختلف بالكلية كذلك مع البوذية التي تتبنى مفهوم أن الكمال والخلاص الإنساني لن يتحقق إلَّا بارتقاء الإنسان فوق رغباته وقطع كل أواصر العاطفة مع الحياة الدنيوية . ويختلف المبدأ الإسلامي عن كل هذه المبادئ حيث يقرِّر أن الإنسان يمكن أن يصل إلى الكمال في حياته الدنيا عن طريق استغلال كل الطاقات والإمكانيات المتاحة له في الحياة .

---

( ١ ) يقصد محمد أسد بالكمال الإنساني الكمال النسبي ، نظرًا للقصور البيولوجي للإنسان ، وهو بذلك كمال محدود بحدود مادية معينة ، ومن ثَم لا يعني اتصاف الإنسان بكافة الصفات الجيدة ، وإنما يعني تنمية الصفات الإيجابية الموجودة في الإنسان بالفعل وبالأسلوب الذي يتيح الاستفادة القصوى من قواه الكامنة . انظر Islam at the Crossroads ( ص ٢٠ ، ٢١ ) .

وينظر الإسلام إلى الإنسان من خلال منظور مختلف عن الديانات الأخرى ، فهو في المسيحية مثلًا : خُلق ومعهُ الخطيئة . وترى الهندوسية أنَّ طبيعة الإنسان دونية وغير طاهرة ، وأن عليه أن يُكافح وينصب حتى يرتقي خلال سلسلة طويلة من حلقات التطهُّر حتى يصل إلى الكمال ، بينما يرى الإسلام أن الإنسان خُلق طاهرًا ويفترض فيه الكمال ، حيث يقول الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [التين : ٤ - ٦] .

وتوضِّح هذه الآيات أن الأصل في الإنسان الطهارة والصلاح ، وتضيف علاوة على ذلك أن عدم الإيمان بالخالق وقلة الأعمال الصالحة من الأسباب التي تجعل الإنسان يبتعد عن الكمال المفترض فيه أصالةً . ولكن يمكن للإنسان أن يستعيد كماله باستعادة صلته بالله الخالق وبالإيمان بوحدانيته وبالاستقامة على طريقه .

ويعدُّ مبدأ الإسلام في عدم توريث المعصية وانعدام مسؤولية الإنسان إلا على أفعاله الشخصية من أهمِّ المبادئ التي أعجبت محمد أسد في الإسلام ؛ لأن فكرة مسؤولية الإنسان عن الخطيئة الأولى وأنه خُلق محمَّلًا بوزرها يتنافى مع مبدأ العدل الإلهي ، ولذا يقرِّر القرآن الكريم : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الإسراء : ١٥] .

وحيث ينفي الإسلام مبدأ توريث الخطيئة الأولى فهو

ينفي بالتبعية حاجة البشرية إلى من يفتدي خطاياها ويضمن لها الخلاص ، ومن ثَمَّ تكون مسؤولية النجاة أو الهلاك مسؤولية شخصية تقع على عاتق كل إنسان بذاته . وفي هذا المجال يؤكِّد القرآن الكريم : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم : ٣٩] .

وتتجلَّى عظمةُ الإسلام وتَمَيُّزُهُ عن ما سواه من الشرائع في العلاقة بين الدنيا والآخرة . وحين يقارن محمد أسد الفكر الإسلامي في هذه العلاقة والفكر المسيحي مثلًا يجدُ أن المسيحية تنظر إلى الدنيا بازدراء ، وتنعتها بالدونية ، بينما وقعت الحضارة الغربية الحديثة في غرامها خلافًا لما نادت به المسيحية الأصلية ، فعلاقة الإنسان الغربي بالحياة الدنيا علاقة من يشتهي الطعام ويحبه ولكنه لا يحترمه . أما الإسلام فينظرُ إلى الحياةِ الدنيا نظرةً وسطيةً بين العشق والازدراء ، ويعتبرها مرحلة يجبُ المرورُ مِن خِلالها حتى يصلَ الإنسانُ إلى مرتبةٍ أسمى من مراتبِ وجوده الإنساني ، وحيثُ إنها مرحلة هامة في حياةِ الإنسانِ لا يحقُّ لهُ ازدراءها ولا التعالي عليها ، وإنما يجدرُ به اغتنامها ومعرفة قدرها ، ويعلِّمنا القرآن الكريم أن ندعو بهذا الدعاء : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ [البقرة : ٢٠١] .

وتشير هذه الآية الكريمة إلى أن ما يناله الإنسان من خَيْرٍ في هذه الحياة الدنيا لا ينقص من معينه في الآخرة ، ولا يقلِّل بالضرورة من روحانياته وتعلُّقه بها . فالرخاءُ المادي

مطلوبٌ في الإسلامِ ، ولكنه ليس غاية في حدٍّ ذاتهِ ، فالهدف الأساسي وراء كافَّة الأنشطة الإنسانية هو تنمية القيم والأخلاق الإنسانية ، ومِنْ ثَمَّ فإن الإسلام يدعو إلى تنمية الضمير الإنساني بحيث يتحمَّل كلُّ إنسانٍ المسؤولية المطلقة عن سائر أعماله صغيرها وكبيرها .

* * *

# الفَصِلُ الثَّالِثُ

## فسادُ العالم الإسلامي هل يمكن تغيير الوضع الحالي ؟

### تمهيد :

يعاني العالم الإسلامي من حالة من الفساد والفوضى عمَّت الكثير من مجالات الحياة . فقد تخلَّف المسلمون اليوم - مع الأسف الشديد - اقتصاديًّا وعلميًّا وتقنيًّا وسياسيًّا وتعليميًّا ، ومِمَّا لا شكَّ فيه أن هذا الوضع قد سبَّب حالة من الركود الديني . ونتج عن حالة الركود الديني هذه تفشي الفساد بين المسلمين لعدة قرون . لماذا تقدَّم المسلمون في عصور الإسلام الأولى ؟ هل يمكن للمسلمين اليوم أن يخرجوا من مستنقع الفساد والتخلُّف ؟ أي طريقٍ يسلكون حتى يغيروا هذا الواقع ؟ يحاول محمد أسد المفكِّر المسلم الذي اعتنق الإسلام وانشغل بمشاكله أن يجيب على هذه الأسئلة في هذا الفصل .

### الإسلام أسلوبُ حياة وليس عادات :

تأثَّر محمد أسد من حالة الفساد التي عمت الكثير من بلاد العالم الإسلامي ، وقد أوضح في كثير من كتاباته أن الإسلام سبب عظمة المسلمين وليس العكس ، فعندما يصبح الإسلام عادة وليس مَنْهَجَ حياةٍ يتبعه المسلمون بوعي كامل وباقتناع ، فسوف يخبو بريق ابتكاراتهم وتبهت

حضارتهم مفسحة المجال للتخلُّف والخمول (١) .

ويرى محمد أسد أن تخلُّف المسلمين نتج عن عَجْزِهِمْ في تطبيق منهج الإسلام في حياتهم ، فتحوَّل تقدُّمهم إلى جمود وتخلُّف . وما عرف عن المسلمين في الماضي من كرم ، ورغبة في التضحية بالنفس تحوَّل اليوم إلى ضيق في الأفق ورغبة في الحياة السهلة . ويرجع السبب الأساسي في التخلف الثقافي والاجتماعي للمسلمين إلى تخليهم التدريجي عن تطبيق روح الإسلام . فالإسلام لا يزال موجودًا في حياتهم ولكنه جسدٌ بلا روح (٢) .

ويتناول محمد أسد هذه الأفكار بمزيد من التحليل موضِّحًا أن الإسلام دفع المسلمين الأوائل إلى أعلى قمم الحضارة عندما سهَّل عليهم فهمه واستيعاب حقيقة الخلق ومفهوم الرب ، فلم يطلب منهم فهم حقائق صعبة بعيدة عن المنطق البشري ؛ لذا لم تدفعهم الرغبة في المعرفة التي عرف بها المسلمون في صدر الإسلام إلى الدخول في معارك فكرية ضد الدِّين كما حدث مع أمم أخرى ، بل على العكس من ذلك أصَّل الإسلام الرغبة في المعرفة وجعلها فرضًا أساسيًّا من فروض الدين حيث يقول النبيُّ ﷺ أن طَلَبَ العلم فريضةٌ على كل مسلم ومسلمة . أيقن المسلمون أنه عن طريق العلم وحدهم يمكنهم عبادة ربهم حقَّ عبادته . فعندما يقرأ المسلمون

---

(١) انظر The Road to Mecca ( ص ١٩٣ ) .

(٢) انظر Islam at the Crossroads ( ص ١٠ ) .

قول الرسول الكريم : « **ما خلق اللّه من داء إلا وله دواء** » يدركون أن البحث العلمي مطلوبًا للوصول إلى الدواء ، وأن البحث سيساعد الإنسان على تطبيق مشيئة اللّه على الأرض ، ومن ثمَّ اكتسب البحث العلم قداسة لارتباطه بالفروض الدينية . ويقرأ المسلمون في القرآن قول اللّه تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [الأنبياء : ٣٠] فتدفعهم الرغبة في فَهْمِ هذه الآيات إلى البَحْثِ في الكائنات الحيَّة وتطوُّرها فينشأ من أبحاثهم علم الأحياء .

ويشير القرآن إلى التناغُم بين النجوم وحركتها كدليل شاهد على عظمة الخالق ، فيدفع البحث في هذه المجالات المسلمين إلى وضع أساسيات علوم الرياضيات والفلك .

فالإسلام يخرج بمفهوم العبادة من قالب الصلاة إلى أفق البحث والمعرفة ، بينما ينحصر مفهومها في الأديان الأخرى في مفهوم ضيِّق .

وفي القرن السادس عشر عندما عرفت أوربا نظام المجموعات الشمسية ودورانها حول الشمس عادته الكنيسة واعتبرته مخالفًا للإنجيل ، في حين أن المسلمين كانوا قد وصلوا إلى معرفة نظام المجموعة الشمسية ، واستطاع علماء الفلك المسلمون إثبات أن الأرض كروية وعرفوا حقيقة دورانها حول مِحْوَرِهَا منذ أكثر من ستة قرون ، أي : في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين . وقد تمكَّنوا أيضًا من عمل حسابات دقيقة عن خطوط الطول والعرض ، والكثير من الدراسات الأخرى دون أن يُتَّهَمَ أيٌّ

منهم بالإلحاد أو بالخروج عن الملة ، وكذلك كان حالهم في علوم الكيمياء والفيزياء وعلم النفس وشتَّى العلوم الأخرى التي أثبتوا فيها نباهتهم وعظمتهم وعبقريتهم . ويعزي محمد أسد تفوُّقهم هذا إلى اتباعهم لِهَدْي النبي محمد ﷺ حيث حثَّهم على العلم قائلًا : « **من التمس طريقًا يلتمس فيه علمًا سهَّل اللَّه له طريقًا إلى الجنة** » ، وكذلك قوله : « **إن العلماء هم خلفاء اللَّه في الأرض** » ، وكذلك : « **إن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم** » ، وكذلك : « **يوزن مداد العلماء يوم القيامة بدم الشهداء** » .

ويَخْلُصُ أسد أنه نظرًا لهذا الفهم لدور الدِّين في الحياة نَبَغَ العلماء المسلمون وتألَّقت الحضارة الإسلامية في عصورها الأولى ، أي : في الخمسة قرون الأولى من بعثة النبي ، وأصبحت الدولة الإسلامية هي أرض الحضارة والأمان [1] .

ويضيف أسد أن الحياة تأثَّرت كذلك بتعاليم القرآن ، ففي الوقت الذي كانت تعتقد فيه أوربا أن الأوبئة لعنةٌ من اللَّه وعلى الإنسان أن يتقبَّلها بخضوع ، كان المسلمون يتَّبعون تعاليم نبيِّهم الصحِّية ويقومون بعزل الأماكن الموبوءة . وحين كان العالم المسيحي يعتبر الاستحمام ضربًا من الرفاهية غير اللائقة بما في ذلك الملوك والنبلاء ، كانت الحمامات موجودة حتى في أفقر بيوت المسلمين . وكانت الحمامات العامة أمرًا مألوفًا في كافة المدن الإسلامية ( على سبيل المثال

---

( ١ ) انظر The Road to Mecca ( ص ١٩٢ ) .

كان في مدينة قرطبة ثلاثمائة حمام في القرن التاسع ) ، ومِنْ ثَمَّ لم يقع المسلم فريسة للصراع الداخلي بين متطلَّباته الجسدية والروحية ، فالاستمتاع بالدنيا لا يتعارض مع روحانيات العبادة ، وفي حديث النبيِّ : « **إن اللَّه تعالى يحبُّ أن يُرَى أثرُ نعمته على عبده** » .

وإجمالًا للقول يمكن أن نَخْلُصَ إلى القول : بأن الإسلام قد وفَّر مقوِّمات ازدهار الحضارة التي سطرت صفحة من أعظم صفحات التاريخ الإنساني . وقد استطاع أن يصل إلى ذلك من خلال دَفْعِ أتباعه إلى التفكير والعقلانية والبُعْد عن الغموض الفكري والتعقيد ، من خلال تشجيع العمل والبُعد عن الدعة والكسل ، ومن خلال الحثِّ على الانخراط في الحياة وعدم التنسُّك والرهبنة . فلا مجال للتعجُّب إذًا - كما يقول محمد أسد - في أن الإسلام عندما خرج من حدود الجزيرة العربية اجتذب الكثير من الأتباع . فقد وجد مسيحيو سوريا وشمال إفريقيا وتبعهم في ذلك أهل إسبانيا الذين كانوا يتبعون مذاهب بولين وقسطنطين أنفسهم لأول مرة أمام أفكار تتعارض مع فكرة الخطيئة الأولى ومبدأ دونية الحياة على الأرض . ومِنْ ثَمَّ فقد دخلوا بأعداد متزايدة في هذه العقيدة الجديدة التي أتاحت لهم فهم حقيقة أن الإنسان هو خليفة اللَّه على الأرض حيث إنه يتعارض مع التحليل غير المنطقي للخلق في المنطق المسيحي . ويرى أسد أن هذا المفهوم في حدِّ ذاته هو

أحد أسباب ازدهار الحضارة الإسلامية في أول عهدها [١] .

## الإسلام بين السلفية والصوفية والحداثة :

زار محمد أسد عدَّة بلاد إسلامية وعاش فيها فترات من الزمن . ومن تلك البلاد : مصر وإيران وأفغانستان وليبيا والسعودية وسوريا وفلسطين وتركيا والعراق وباكستان والعديد من الدول الإسلامية الأخرى . وقد لاحظ محمد أسد خلال زياراته وجود انقسامات بين المسلمين وبخاصة فيما يتعلَّق في فهم الدين والعقيدة وطريقة تناوُلها . ومن المعروف للجميع أن الإسلام قد تعرَّض خلال تاريخه الطويل لكثير من التيارات والحركات ، منها على سبيل المثال : السلفية والصوفية وما يُعْرَفُ بالحداثة . وبما أن هذه الاتجاهات لا تزال حاضرة ومؤثِّرة في الساحة الإسلامية فإنه من الضروري أن نلقي الضوء على مفهوم محمد أسد لهذه الاتجاهات .

يرى محمد أسد أن التيار السلفي الذي أسَّسه ابن عبد الوهاب يمثِّل مفهوم الإسلام الذي لا يقبل التنازلات ويطلق عليه « الحركة الوهابية » ، وقد حاول هذا التيار أن يضع حدًّا للبدع التي كانت قد أثَّرت بشكل كبير على تعاليم الإسلام في ذلك الوقت . والوهابية كما يوضِّح محمد أسد ليست فرقة إسلامية كما يحبُّ أن يشير إليها

---

(١) المرجع السابق ( ص ١٩٢ ، ١٩٣ ) .

الكثيرون . فالفرقة – كما يوضِّح محمد أسد شارحًا – هي المجموعة التي تتَّخذ قواعد وقوانين تفصل أتباعها عن المجموعة الأصلية من أتباع الدين . أما في حال الوهابية فلا توجد قوانين وتشريعات مختلفة ، بل على العكس فقد حاولت الحركة الوهابية إبعاد كل القوانين والتشريعات الدخيلة على الإسلام التي تداخلت مع تعاليم الإسلام الأصلية على مدار السنوات الطويلة ، وحاولت تأصيل وتأكيد والحفاظ على سنة الرسول ، وقد استطاعت هذه الحركة بالفعل تخليص الإسلام مما علق به من شوائب الخرافة ، وكان من الممكن أن تؤدِّي إلى تحرير روح الإسلام وانطلاقها حتى أن النهضة الإسلامية المتمثِّلة في جماعة أهل الحديث في الهند وجماعة أهل السنة في شمال إفريقيا وظهور كل من جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده في مصر مرجعها جميعًا إلى الصحوة التي بعثتها حركة محمد بن عبد الوهاب في القرن الثامن عشر . غير أن الاتجاه الذي اتخذته هذه الحركة في تطوُّرها داخل منطقة نجد أدَّى إلى ظهور عيبين أساسيين حالا دونها ودون أن تصبح حركة روحية عامة لنهضة الإسلام .

والعيب الأول هو ضَيْقُ الأفق في فَهْمِ وتطبيق النصوص الدينية على معناها الحرفي الظاهر دون الغور في أبعادها الروحية . أما العيب الثاني فيرجع إلى تكوين الشخصية العربية ذاتها التي تتَّصف بالاعتداد بالرأي وعدم تقبُّل الرأي

الآخر ، مما لا يدع مجال للمخالفة ، وهذه الصفة الشخصية لدى العرب لا تعد بأي حال من الأحوال من الصفات السامية ، بل هي على النقيض من ذلك . ومن المؤسف أن توجد مثل هذه الصفة في الشخصية العربية فهي تجعل من الفكر العربي منحازًا بالكلية إلى الفكرة أو نقيضها ، وغير قادر تمامًا على الالتقاء مع الآخر في منتصف الطريق . وفي الماضي القريب منذ ما يقرب من قرنين من الزمان ابتعد العرب - كغيرهم من المسلمين - عن تعاليم دينهم الإسلامي ولكن بعد مبادرة محمد بن عبد الوهاب لإحياء الدين أصبحوا يرون أنفسهم حماة العقيدة والأوصياء عليها . وما لبث البعد الروحي للحركة الوهابية - وهو مجاهدة النفس للوصول إلى التجديد الداخلي للمجتمع المسلم - أن تحقق حتى سحقه تمامًا هدفها الخارجي - وهو الوصول إلى السلطة - وذلك بتأسيس المملكة السعودية التي شملت معظم الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر واتسعت رقعتها حتى شملت المزيد من أراضي الجزيرة العربية في مطلع القرن التاسع عشر .

فما أن وصل أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب للسلطة حتى توارت أفكاره ، وما عادت قابلة للتطبيق ، فلا يمكن للروح أن تصبح خادمًا للقوة ولا يمكن تحقق العكس أيضًا (١) .

---

(١) المرجع السابق ( ص ١٦٠ ، ١٦١ ) .

أما فيما يتعلّق بالصوفية وبفهمها للدِّين فيروي محمد أسد أنه قد التقى بالعديد من الدراويش وأتباعهم خلال رحلاته المختلفة . وفي الوقت الذي لا ينقص فيه محمد أسد من قيمة التجربة الروحية للإسلام في مفهوم المتصوِّفة إلا إنه يأخذ عليها تأثُّرَها بالتقاليد الهندية والغنوسطية ، وأحيانًا المسيحية التي يرى محمد أسد أنها قد أثَّرت على الفكر التصوفي ، مما أدَّى إلى تكوُّن مبادئ فكرية غريبة عن رسالة الإسلام بالكلية وتغلغلها في النسيج العقائدي للمسلمين . ويأخذ أسد على الصوفية كذلك تغلُّب الجانب العاطفي على فهمها للدِّين ؛ حيث إن الإسلام دين يعتمد أساسًا على الفكر وليس على العاطفة . ويصف محمد أسد تجربته مع ما يسمى بحلقات الدراويش (١) التي يصاحب فيها الذكر الرقص والآلات الموسيقية في أحد المساجد كما يلي :

« يتعارض مفهوم المجموعات المنغلقة لمتبعي هذه الطرق الصوفية بالكلية مع الفكرة التي كانت تتبلور في ذهني ببطء عن الإسلام . لذلك طلبت من صديقي الأزهري أن يمدَّني ببعض الكتب الخاصة بهذه المجموعات فتأكَّدت هواجسي بعد قراءتها ، حيث أيقنت أن فكرة تكوين مجموعات دينية

(١) يرى محمد أسد أن نظام حلقات الذكر التي يتحرَّك فيها الدراويش حركة دائرية وفق إيقاع منتظم ومتكرر تصل بهم إلى حالة من النشوة الروحية الصوفية وتساعدهم - حسب ادعائهم- للتعرف على اللَّه من خلال تجربة شخصية ومباشرة .

خاصة وقاصرة على منتسبيها ليست فكرة إسلامية صميمة ، بل هي واردة من مصادر غير إسلامية . ومِنْ ثَمَّ فإن الأفكار الصوفية تكوَّنت نتيجة تأثيرات هندية وغنوسطية ، وكذلك مسيحية ، ومن خلال هذه العقائد دخلت أفكار غريبة عن تعاليم النبي بالكلية مثل التنسُّك والزهد ، حيث إن رسالة النبي أكدت تمامًا أن العقل - والعقل فقط - هو السبيل الوحيد لرسوخ العقيدة وعلى الرغم من أنه ليس بالضروري معارضة التجربة الروحية المنبثقة من هذا الفكر ، فإنه يجب التأكيد في ذات الوقت على أن الإسلام دين منطق وإعمال عقل وليس دين إعمال عاطفة . وعلى الرغم أيضًا من أن تعاليم النبي قد أثَّرت عاطفيًا في أتباعه وقد ربطتهم برابطة من المشاعر لا يمكن إغفالها بحال إلَّا أن الإسلام لم يسلم زمام الأمور للعاطفة قطُّ ، وما كان لها دور القيادة الدينية على الإطلاق ، فبالرغم من عُمْقِ تأثيرها إلا أنه يمكن توجيهها وتقلبها على أساس الرغبات أو الخوف ، وليس على أساس العقل ، حتى مع وجود احتمالات الخطأ والزلل » [١] .

ويجد محمد أسد إجابة على تساؤلاته في فكر العالم الإسلامي الكبير الشيخ مصطفى المراغي الذي تتلمذ على يد العلامة الشيخ محمد عبده في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الميلاديين . وقد شَغَلَ الشيخ المراغي

---

(١) انظر The Road to Mecca ( ص ١٩٧ ) .

شياخة الأزهر وربطته بمحمد أسد علاقة صداقة قوية أثناء إقامته بالقاهرة . وقد سأل محمد أسد صديقه العلامة ذات مرة عن أهمية ارتباط الناس بتعاليم معينة والتي تفرضها طائفة أو فئة بعينها ؟ ولماذا لا يتركون أنفسهم لوازعهم الأخلاقي ؟ أليس من الأفضل أن تكون تصرفاتهم نابعة من ضميرهم الأخلاقي ؟ وقد أجاب الشيخ المراغي على هذا السؤال قائلًا : « إن سؤالك هذا يا أخي العزيز يعني أنه لا يجب أن تكون هناك أية مؤسسات دينية . فالإجابة في غاية البساطة : فعدد أولئك الذين يمكن أن يعتمدوا على الوازع الداخلي كمرجعية دينية لديهم عدد قليل للغاية ، ويكاد ينحصر في الرسل ، وإذا اتبع كل شخص ما يوحي إليه قلبه فقط سنصل إلى حالة من التدهور الأخلاقي الكامل ؛ حيث إن معظمنا يخضع لأهوائه ورغباته . ومن حقِّك أن تسأل بالفعل إذا ما كان هناك استثناءات لهذه القاعدة . فهناك بالفعل عددٌ قليل من الناس ممن يتمتعون بالفهم الصحيح ولا يحتاجون إلى الإرشاد والانقياد خلف غيرهم ، ولكني أؤكِّد لك أن عددهم قليل . ولكن دعني أسألك : ألا ترى أن معظم الناس يرون أنفسهم على حق ؟ وأن رأيهم هو الصواب ؟ فما هي النتيجة إذًا ؟ » (١) .

أما فيما يتعلَّق بمعنى الحداثة فإن محمد أسد يفسِّره بدخول الكثير من الدول الإسلامية تحت مظلَّة الغرب

---

(١) المرجع السابق ( ص ١٩٣ ، ١٩٤ ) .

المستعمِر ، والتي لا تقبل الإسلام كنظام متكامل للحياة ، أي أنه غير قادر على حلِّ مشكلات الإنسان في العصر الحديث . ومثل هذه الأفكار لا تظهر معارضتها للدِّين ولا للعاطفة الدينية ، وبخاصة في بداية ظهورها والترويج لها ، ولكن يظهر عداؤها بمجرَّد وصولها للسلطة . ولعلَّ المثال الواضح لذلك هو كمال أتاتورك ، وما فعله في تركيا . ويذكُرنا محمد أسد كيف كانت تركيا رَمْزًا للإسلام في بداية حكم أتاتورك ، وكيف أن الوازع الديني وحده سبب في تقدُّمها وتفوُّقها ؛ حيث كان الدافع وراء محاربة اليونانيين ومن وقفوا وراءهم من الحلفاء . ولكن ما أن حقَّق القائد النصر حتى تكشَّفت دوافعه وأهدافه التي تباينت تمامًا مع أهداف وتوقُّعات شعبه . وبدلًا من استثمار الحمية والعزيمة الدينية التي كانت سببًا في نصره حارب كمال أتاتورك الدِّين بشدة وقاوم بشراسة - وبدون سبب مُقْنِع - كل القيم والشعائر والمظاهر الإسلامية . ويرى محمد أسد أنه لم يكن هناك ما يدعو كمال أتاتورك لإظهار كل هذا العداء للإسلام ؛ إذ كان من الأحرى أن يستثمر العزيمة والحماسة الدينية لدى شعبه استثمارًا إيجابيًا في تحقيق التقدُّم والازدهار دون أن يقطع جميع أواصرهم الثقافية ومقوِّماتهم الحضارية التي جعلت منهم شعبًا عريقًا ومميَّزًا [1] .

---

(١) المرجع السابق ( ص ٣١٩ ) .

## كيف الخروج من المحنة ؟

يرى محمد أسد أن ما يبدو وكأنه تدهور للإسلام ليس في واقع الأمر إلّا خواء وموت في قلوبنا التي أصبحت مصمتة وصلدة وغير قادرة على الاستجابة إلى نبض الحياة ونداء الحق . ويعلّق أسد على ذلك شارحًا :

« ليس هناك ما يشير إلى أن الإسلام غير قابل للتطبيق في الوقت الحالي ، فما استطاعت الإنسانية حتى الآن أن تفرز نظامًا أخلاقيًا يضاهي المنظومة الأخلاقية الإسلامية . وما استطاع نظام فكريٌّ كائنًا ما كان أن يضع مفهومًا وتطبيقًا لمعنى الأخوة الإنسانية التي تسمو فوق القوميات والوطنيات كما وضعها الإسلام في مفهومه لمبدأ « الأمة » . وعجزت الإنسانية كذلك عن تكوين هيكل اجتماعي يمكن من خلاله اختزال النزاعات والخلافات بين أفراده إلى الحد الأدنى الذي يمكن فقط الوصول إليه من خلال تطبيق التصور الإسلامي للمجتمع . وكذلك وقفت الإنسانية عاجزة تمامًا حيال الوصول إلى دعم كرامة الإنسان وتوفير إحساسه بالأمان والأمل الروحي وأخيرًا وليس آخرًا تحقيق السعادة »(١) .

فالناس في هذا العالم إذًا يحتاجون إلى الإسلام لتحسين أسلوب حياتهم ، ويضيف محمد أسد أن العالم لم يكن في أي وقت من الأوقات أحوج إلى الإسلام منه اليوم . فالعالم

---

(١) انظر Islam at the Crossroads ( ص ٩٨ ) .

اليوم - كما يوضح محمد أسد - يموج في خضم هائل من عدم الاستقرار ؛ نظرًا لعدم وجود نظام متفق عليه يحدد ملامح الخير والشر ، وما يجوز وما لا يجوز من الناحية الروحية ، وبالتالي من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية . ويضيف محمد أسد :

« فما أحوجنا اليوم إلى وضع أسس أيديولوجية متفق عليها تكون اللبنة الأساسية لنظام اجتماعي جديد ، وهذا يحتاج إلى إيمان يجعلنا ندرك حقيقة الخواء الروحي الذي نعاني منه نتيجة للتقدم المادي عندما يكون التقدم المادي هدفًا في حد ذاته . ويجب أن يحقق هذا النظام الاجتماعي الجديد التوازن بين احتياجاتنا المادية والروحية ، ومن ثم ينقذنا جميعًا من السقوط في الهوّة السحيقة التي يندفع العالم نحوها الآن بشدة »[1] .

ولا يخفي محمد أسد إحساسه الشديد بالخذلان عند بداية تعرُّفه بالعالم الإسلامي نتيجة للوضع المتدني الذي وصل إليه هذا العالم . ومع ذلك فقد لاحظ محمد أسد من خلال زيارته ورحلاته إلى بلدان العالم الإسلامي أن الإسلام لا يزال حيًا بالرغم من نظرة العالم إلى أتباعه وبالرغم كذلك من تطبيقهم الصامت لمبادئه الأخلاقية ، فهم غير قادرين تمامًا على الحركة ، وعاجزون عن ترجمة عقيدتهم إلى واقع ملموس . ويوضِّح محمد أسد أن اهتمامه لم يكن

---

(١) انظر The Road to Mecca ( ص ٣٠٥ ) .

منصبًّا على تطبيق المبادئ الإسلامية بقدر اهتمامه بالمبادئ ذاتها ، وفي ذلك يقول :

« كان من الكافي لديَّ أن أعرف أنه في مَهْدِ التاريخ الإسلامي وخلال فترة وجيزة كانت هناك محاولة ناجحة لترجمة هذه العقيدة في أرض الواقع ، ومن ثَمَّ فإن ما أثبت قابليته للتطبيق مرة قد يصبح قابلًا للتطبيق مرة أخرى . فقلتُ لنفسي : وما شأني إذًا إذا كان المسلمون قد هاموا على وجوههم وضلُّوا عن عقيدتهم واستبدلوها بالجهل والدعة ؟ وما أهمية أنهم لم يستطيعوا تطبيق النظام المثالي الذي أتاهم به نبيُّهم العربي منذ ما يزيد عن ثلاثة عشر قرنًا من الزمان إذا كان النظام ذاته موجودٌ ومتاحٌ لكلٍّ من يرغب في الاستماع إلى رسالته ؟ » (١) .

وتبدو نظرة محمد أسد جليَّة وواضحة : فإحياء الإسلام أمْرٌ ممكنٌ ، فما نحتاجه الآن ليس « إصلاحًا للإسلام » - كما يظنُّ بعض المسلمين مع الأسف - لأن الإسلام دينٌ مثالي في حدِّ ذاته ، ولكننا في حاجة إلى إصلاح « تناوُلنا للإسلام » . نحن بحاجة إلى التخلُّص من كَسَلِناَ وأنانيَّتنا وغُرُورِناَ وقِصَرِ نَظَرِناَ ، فهذه هي عيوبُنا وليست عيوب الإسلام . وحتى يتحقَّق إحياء الإسلام علينا أن لا نبحث عن قوانين ومبادئ خارجية ، ولكن علينا فقط أن نطبِّق قوانيننا القديمة التي تجاهلناها منذ زمن بعيد . ويمكننا بالطبع

---

(١) المرجع السابق ( ص ٣٠٥ ) .

أن نستعين ببعض المؤثِّرات من الثقافات الأخرى ، ولكن ليس لنا مطلقًا أن نستبدل أساسيات الإسلام المثالية بأيِّ مبادئ أخرى لا تنبع من ذات المصدر . فالإسلام كمؤسَّسة روحية واجتماعية لا يمكن تطويره ولا تغييره ؛ حيث إن أيَّ تدخُّلٍ ثقافي من قِبَلِ أيِّ ثقافة أجنبية يطرأ على نظامه الاجتماعي سوف يكون له آثاره المدمِّرة التي لن تحمد عواقبها .

والحقُّ أننا بحاجة بالفعل إلى التغيير ولكن تغيير أنفسنا في اتجاه الإسلام وليس في الاتجاه المعاكس . وعلى الرغم من ذلك يجب أن لا نخدع أنفسنا ، فنحن نعي تمامًا أن عالمنا الإسلامي قد فقد وجوده على أرض الواقع كعامل من عوامل الثقافة المستقلة . ونحن لا نعني هنا الجانب السياسي لتدهور المسلمين ؛ حيث إن واقعنا المتدني ينعكس بوضوح على الأوضاع الفكرية والاجتماعية أيضًا . ويبدو ذلك جليًا أيضًا في انعدام ثقتنا في قدرتنا على الابتكار وتدمير الخلايا الاجتماعية وهذه الحالة من التدهور الثقافي والاجتماعي التي نمرُّ بها في الوقت الحاضر إن دلَّت على شيء فإنما تدلُّ على اختلال التوازُن بين العناصر المختلفة التي كانت سببًا في نهضة الأمة الإسلامية في الماضي . فنحن ننزلق في منزلق ثقافي لا ندري إلى أي هاوية سيستقر بنا . فما عاد لدينا شجاعة فكرية ولا قدرة على مقاومة التأثير المدمِّر للثقافة الأجنبية على ديننا ومجتمعاتنا ، وقد تخلينا عن أفضل تعاليم أخلاقية عرفها العالم على

الإطلاق . وها نحن ذا وقد خالفنا عقيدتنا التي كانت أساس حياة أجدادنا ، وما نِلْنا من ذلك سِوَى الخِزْيِ في حين نعموا هم بالعزة والكبرياء من جراء اتباعهم لهذه العقيدة . وفي حين أصبنا نحن بالشحّ والأنانية والتحوصل حول الذات تميَّزوا هم بالكَرَم وانفتحوا على العالم ، وإذا كنا منينا بالخواء النفسي بينما نعم أجدادنا بالقوَّة النفسية والاتِّزان (١) .

وهذه الحقائق يعلمها كل مسلم ذو عقل ، بل إن كثيرًا منًّا قد سمعها مرارًا وتكرارًا دون أدنى شكٍّ ، فما جَدْوَى تكرارها هنا إذًا ؟ يجيب محمد أسد عن هذا التساؤل فيما يلي :

« هناك مَخْرَجٌ واحد لحالة الخِزْيِ التي أَلَمَّتْ بنا في العصر الحالي ، وهي أن ندرك حقيقة واقعنا المخزي ، وأن نضعه نصب أعيننا ليل نهار ، ونتجرَّع مرارته حتي يتكوَّن بداخلنا الإصرار على أن نزيل أسبابه . فلا جَدْوَى من إخفاء الحقيقة المرَّة ومن خداع أنفسنا والتظاهر بأن الإسلام يَنْمُو وأن العمل الإسلامي نشيطٌ ، وأن حملات الدعوة تجتهد في كافة أنحاء العالم ، وأن الغربيين قد بدأوا يدركون جمال الإسلام ... فلا جَدْوَى من إقناع أنفسنا بذلك . لا جَدْوَى من التظاهر والمجادلة لإقناع أنفسنا أن حالة التدهور والخزي أوشكت على الانتهاء ؛ لأنها ليست كذلك . ولكن هل هذه هي النهاية ؟ لا يمكن أن تكون

---

(١) انظر Islam at the Crossroads ( ص ١٠٠ ، ١٠١ ) .

كذلك . فهناك رغبة لَدَى الكثيرين في الإصلاح ، الرغبة في أن نكون أفضل مما نحن عليه الآن ، وهذه الرغبة في حدٍّ ذاتها تبعث في أنفسنا الأمل في أن الأمر لم ينته بالنسبة لنا بعد . فهناك سبيل للخروج مما أحلَّ بنا وهو طريق واضح لكلٍّ مَنْ له عينان ، ولعلَّ الخطوة الأولى تكمن في أن نغلق باب الاعتذار عن الإسلام ؛ حيث إنها دليل على الهزيمة الفكرية . وما هي إلَّا قناع نخفي وراءه تشكُّكَنا وضَعْفَ عقيدتنا [١] أما الخطوة الثانية فتكون في اتباعنا الواعي والسليم لسنَّة النبي ﷺ ، فالسنَّة هي التطبيق الفعلي لتعاليم الإسلام ، وعند تطبيقنا لها في حياتنا اليومية تصبح هي المعيار الذي يمكن من خلاله اختبار مؤثِّرات الحضارة الغربية ومَدَى صلاحيتها للتطبيق في حياتنا ، ومن ثَمَّ نعرف ما يمكن أخذه وما علينا تركه منها . وبدلًا من إخضاع الإسلام لمعايير فكرية غربية ، علينا أن نتعلَّم - مرَّة أخرى - كيف يكون الإسلام هو المعيار الذي من خلاله نحكم على العالم [٢] .

---

( ١ ) قدَّم محمد أسد هذه الأفكار منذ ما يزيد عن نصف قرن ، وبالرغم من واقعية هذه الأفكار إلَّا أننا يجب أن نشير هنا إلى أن حال المسلمين اليوم مختلف ؛ حيث إنهم يقعون تحت وطأة حرب عالمية شرسة ضد كل ما هو إسلامي ، ومن ثم فإن موقف الدفاع عن العقيدة أمام الهجمات الخارجية والداخلية مفروض عليهم .

( ٢ ) المصدر السابق ( ص ١٠١ ، ١٠٢ ) .

## أعظمُ خَطَرٍ على المسلمين التقليد الأعمى للغرب ! :

يرى أسد أن أعظم الأخطار التي تهدِّد فكرة إحياء الحضارة الإسلامية هو التقليد الأعمى لنمط الحياة الغربية . ويصف محمد أسد الوضع الحالي للثقافة الإسلامية بالمرض ، ويرى أنها حالة مرضية بدأت في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، عندما بهرت المسلمين أضواء القوة والتقدُّم المادي للغرب مقارنة بأحوالهم الاجتماعية والمعيشية المتدنية . وأصيب الكثيرون منهم بالذهول من المقارنة ، وعندها خلص بعض المفكرين من المسلمين إلى أن النظام الاجتماعي والاقتصادي الإسلامي لا يتواكب مع متطلبَّات القوة والتقدُّم ، ومِنْ ثَمَّ يجب تعديلُه حسب معطيات ومفاهيم الحضارة الغربية . وكان هذا نتاجًا للجهل بتعاليم الإسلام الذي نشأ بدوره نتيجة للفهم القاصر لمفهوم الأمة .

وينقد محمد أسد هذه الأفكار قائلًا : إن الإسلام لا يشجِّع على ضيقِ الأُفُقِ ، بل إنه يفتح للإنسان مجالات إعمال الفكر طالما لا تتعارض مع العقيدة ، ويضيف كذلك قائلًا :

« بالرغم من تعارُض الكثير من أساسيات الحضارة الغربية مع الإسلام مثل الاختلاط المطلق بين الجنسين والفائدة الربوية في كافة التعاملات المالية ، إلا أن جَوْهَرَ الخلاف مع هذه الحضارة يكمن في إلغاء الاحتياج الديني لدى

الإنسان . ولا يمكن بأي حال من الأحوال القول بإمكانية اتباع المظاهر الخارجية للحضارة دون تطبيق جوهرها ، فهذا فَهْمٌ قاصر لا يقبله إلَّا مَنْ يقبلون النظرة السطحية للأمور ، فالحضارة ليست قوالب مفرغة ، بل هي كائن حي . ما أن نبدأ في اتباع مظاهره الخارجية حتى تبدأ كافة موجاته ومؤثراته غير المرئية في التحرك داخلنا وتغير أفكارنا ومفاهيمنا ونتشكل تدريجيًا وببطء وفق هذه الموجات التأثيرية . ولعل أصدق وصف لهذا حديث النبي حين قال : « **من تشبَّه بقوم فهو منهم** » (١) ولا ينطبق مفهوم هذا الحديث على السلوكيات والأخلاقيات فقط ، بل ينطبق على حال المسلمين في تشبُّههم بالحضارة الغربية التي يتبعون مظاهرها الخارجية » (٢)

ويضيف محمد أسد أن التقليد الأعمى للغرب في أفكاره ومثله له أثاره المدمرة على العالم الإسلامي ؛ حيث إنه يقطع أواصر الصلة بين هذا العالم وبين ماضيه ، مما يجعله يفقد ارتباطه بجذوره ، ليس فقط الثقافية ، ولكن الروحية أيضًا . فالعالم الإسلامي كما يشبهه محمد أسد :

« مثل الشجرة التي تبقى قوية طالما بقيت جذورها ضاربة في أعماق التربة ، ولكن طوفان الحضارة الغربية قد كشف هذه الجذور فبدأت هذه الشجرة في التداعي لانقطاع الغذاء

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود .

(٢) انظر Islam at the Crossroads ( ص ٧٦ ، ٧٧ ) .

عنها ، وتساقطت أوراقها ، وتقطعت فروعها ويقف جذعها الآن معرضًا لخطر السقوط هو الآخر » .

ويرى أسد أن تقليد الحضارة الغربية ليس السبيل الصحيح لبعث العالم الإسلامي وإخراجه من حالة الخمول الفكري والاجتماعي التي نتجت عن تخليه عن تطبيق الدِّين ، حتى أصبح مجموعة من الممارسات الخاوية التي تفتقر إلى الحياة وإلى المحتوى الأخلاقي . ويتساءل محمد أسد أين إذن يجد المسلمون العون والزاد الروحي والفكري الذي هم في أشد الحاجة إليه هذه الأيام ؟ ثم يجيب قائلًا أن الإجابة بسيطة مثلها مثل السؤال :

« إجابة هذا السؤال تنبع من السؤال نفسه . فالإسلام كما ذكرنا سالفًا عدة مرات ليس مجرَّد عقيدة في القلب . بل هو برنامج واضح ومحدَّد لحياة الفرد والمجتمع . ويمكن لهذا البرنامج أن ينهار بالكلية عند تقليد أي ثقافة غربية لاختلافهما في الأساسيات الأخلاقية . وعليه فإن إحياء الحضارة الإسلامية يمكن أن يحدث بمجرَّد إعادة وضع الإسلام في موقعه الطبيعي والتعامُل معه على أنه العامل الأساسي والمؤثر بكافة أبعاده في تشكيل كياننا الشخصي والاجتماعي . ونظرًا لاتصاف العصر الحالي بالصراعات الفكرية لا يعقل أن يظل الإسلام قابعًا ومتقوقعًا في عصور الحضارة السالفة ، فما عاد أمامه إلا أحد الخيارين : الصحوة أو الموت . فمثل المسلمين اليوم مثل المسافر الذي وصل إلى

مفترق الطرق ، فتحتَّم عليه أن يختار بين أن يسلك الطريق الذي وضع عليه لافتة « إلى الحضارة الغربية » وعندها عليه أن يودع ماضيه إلى الأبد . أو أن يختار الطريق الآخر وأمامه لافتة « حقيقة الإسلام » . وسوف يختار هذا الطريق من يقتنعون بعراقة ماضيهم وإمكانية تطبيقه في المستقبل [١] .

ويشرح محمد أسد الأمور التي يجب أن يتمسَّك بها المسلم كي يتوصَّل إلى إحياء عقيدته ، وتتمثَّل في التالي :

« على المسلم الذي يعمل على إحياء العالم الإسلامي أن يحرِّر نفسه أولًا من روح الاعتذار عن الهيكل الديني والاجتماعي للإسلام [٢] ، فعلى المسلم أن يرفع رأسه عاليًا ، وعليه أن يدرك أنه يختلف ويتميَّز عن بقية العالم ، وعليه أن يتعلَّم كيف يفخر بهذا الاختلاف . فعليه الحفاظ على هذا الاختلاف وأن ينظر إليه على أنه ميزة غالية ، ومن ثم يجهر به أمام العالم ، بدلًا من أن يحاول إخفاءه والاعتذار عنه ومحاولة الذوبان في دوائر ثقافية مختلفة .

وهذا لا يعني أن يعزل المسلمون أنفسهم تمامًا عن

---

(١) انظر المرجع السابق ( ص ٨١ ) .

(٢) يشترك الدبلوماسي الألماني المعروف الدكتور مراد هوفمان مع محمد أسد في أهمية هذه النقطة وغيرها من العناصر المهمة . والدكتور هوفمان حاصل على الدكتوراه في القانون من جامعة هارفرد ، وقد أُعجب بالإسلام واعتنقه . وقد تحدَّث هوفمان عن أهمية هذه النقطة في كتابه Islam 2000 الصادر عن دار القلم بسراييفو ( ٢٠٠٣م ) ، ( ص ١٥ - ١٧ ) .

الآخرين ، ولكن يمكن للمرء أن يستجيب للمؤثرات الإيجابية من الثقافات الخارجية من وقت لآخر دون أن يتنازل عن ثقافته . ومثال على ذلك عصور النهضة الأوربية حيث استجابت أوربا للتأثير العربي في أساليب البحث العلمي والتعلم ، ولكنها لم تقلد المظهر الخارجي ولا روح الثقافة العربية ولم تتنازل في يوم من الأيام عن خصوصيتها الفكرية والأخلاقية .

ومِنْ ثَمَّ كان استخدامها للثقافة العربية بمثابة المخصبات التي أضافتها إلى تربتها ، تمامًا مثلما استخدم العرب الحضارة الهلسينيكية وقت ازدهارها . وفي كلتا الحالتين كانت النتيجة هي الإثراء الروحي والنماء والتقدم للثقافة والحضارة الأصلية ، وكذلك ازدياد الثقة والاعتزاز بها . فلا يمكن لحضارة أن تزدهر أو حتى توجد على الإطلاق إذا ما فقدت اعتزازها وصلتها بماضيها [١] .

والآثار السلبية الناجمة عن قطع الأواصر مع الماضي واضحة وجليَّة في العالم الإسلامي وتتمثَّل في الإحساس بالدونية الذي أصبح عَرَضًا مرضيًّا يعاني منه عددٌ غير قليل في العالم الإسلامي . ويتنامى هذا الإحساس - مع الأسف - نتيجة للإعلام الغربي الموجَّه الذي قاد منذ سنوات عديدة حملة منظَّمة ضدَّ الإسلام . ويؤكِّد أسد أن تكوُّن الشخصية المسلمة التي يمكنها إحياء الدين لا يمكن أن

---

( ١ ) انظر Islam at the Crossroads ( ص ٧٩ ، ٨٠ ) .

يتحقَّق بحال إلَّا إذا تَخَلَّى المسلمون عن اعتقادهم الداخلي في أن نموذج الحضارة الغربية هو الحلُّ الوحيد الذي يمكن أن يُخرجهم من حالة الركود التي تنتابهم ؛ إذ إنهم بذلك يدمِّرون ثقتهم بأنفسهم ، ويؤكدون - بدون وعي منهم - الفكرة الغربية بأن عَهْدَ الإسلام قد وَلَّى (١) .

الثقة بالنفس والثقة في حضارتنا وثقافتنا وإمكانية تطبيقها هما أهمُّ العوامل التي يجب التمسُّك بها للنهوض بالإسلام من وضعه الواهن . ويؤكِّد أسد على أهمية الثقة بالنفس قائلًا :

« إن تقدُّمنا مرهونٌ باستعادة ثقتنا بأنفسنا ، ولن نصل إلا أهدافنا إذا ما هدمنا مؤسَّساتنا الاجتماعية وحاولنا تقليد الأنماط الغربية ، فهي غريبة عنَّا ، ليست غربة تاريخية وجغرافية فحسب ، بل غربة روحية أيضًا . وقد أوضح اللَّه لنا الطريق الصحيح في القرآن ؛ إذ قال سبحانه وتعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ﴾ [الأحزاب : ٢١] » (٢) .

ويؤكِّد محمد أسد أهمية الأبوين والتنشئة الأسرية في تكوين العقيدة الدينية السليمة لدى الأطفال ؛ حيث إن التكوين الاعتقادي يتحدَّد عن طريق البيئة التي ينشأ بها الفرد ، ويشير أسد في هذا الشأن إلي حديث النبي ﷺ إذ

(١) المرجع السابق ( ص ٦٣ ) .

(٢) المرجع السابق ( ص ١٠٤ ) .

يقول في حديثه الذي أخرجه البخاري: « **كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه** » ، ولفظة أبواه في الحديث كناية عن البيئة المحيطة ، ويشمل ذلك الحياة الاجتماعية والمدرسة والمجتمع وما إلى ذلك ؛ إذ تتشابك هذه العوامل كلُّها في تكوين هوية الطفل . ولا يخفى علينا أن البيئة الدينية متداعية للغاية في كثير من البيوت الإسلامية الآن ، وهي في حالة من الوهن الديني والفكري ؛ مما يؤهِّل الشباب أن يديروا ظهورهم للدِّين بالكلية (١)

## التعليم الإسلامي :

العامل الثاني الذي يجب أن يسترعي اهتمام المسلمين عند تفكيرهم في عملية إحياء الدين والخروج من هوتهم السحيقة هو التعليم . وهو عامل مهمٌّ للغاية ولكن تتداخل فيه ظروف مختلفة ويرى محمد أسد أن الإسلام والحضارة الغربية أصبحا يشكِّلان قطبين متنافرين في الروح ، وفيما يتعلَّق بمفهوم كل منهما للحياة . ومِنْ ثَمَّ فإن تنشئة الأبناء المسلمين على الأسُس التعليمية الغربية يؤدِّي فيما بعد إلى نفورهم من الدِّين ، وعليه فإن سؤالنا الآن هو : ما هو موقف المسلمين من أساليب العلم الحديث ؟ يجيب محمد أسد على هذا السؤال كما يلي :

« إن الثورة ضدَّ الأساليب الغربية في التعليم لا تعني أن

(١) انظر Islam at The Crossroads ( ص ٦٤ ) .

الإسلام ضدَّ العلم الحديث . فما يروِّجه الكثيرون من أعداء الإسلام في هذا المجال يفتقد إلي المرجعية التاريخية والدليل المنطقي ، فالقرآن مليء بالأمثلة التي تدلُّ على الحثِّ على التعليم ويتكرَّر فيه مقاطع تشير إلى أن التعليم يقود المرء للحكمة : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ و ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ و ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ؛ وقد ذكر اللّٰه في بدايات كتابه العزيز : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٣١] ، وتفسر الآيات التالية لهذه الآية كيف أن معرفة آدم بالأسماء جعلت الإنسان في مكانة أعلى من الملائكة . والأسماء هنا رَمْزٌ يدلُّ على القدرة على تعريف الأشياء ، ويرمز كذلك إلى القدرة على التعبير والتفكير ، وهي قدرة خصَّ اللّٰه بها بني آدم ، وهي الخاصية التي تؤهِّله لخلافة اللّٰه على الأرض ، كما يشير القرآن . وحتى يتمكَّن الإنسان من استخدام تفكيره بأسلوب منظَّم عليه أن يتعلَّم . ويؤكِّد هذا المفهوم قول النبي : « **طَلَبُ العلم فريضةٌ على كلِّ مسلم ومسلمة** » (١) ، وقوله ﷺ أيضًا : « **من سَلَكَ طريقًا يبتغي به عِلْمًا يَسَّرَ اللّٰه له طريقًا إلى الجنة** » (٢) .

ويضيف محمد أسد أنه ليس من الضروري في هذا الشأن أن نستشهد بآيات القرآن أو بالأحاديث النبوية الشريفة للتدليل على حثِّ الإسلام على العلم ؛ حيث إن الأدلة التاريخية تثبت ذلك بما لا يدع مجالًا للشكِّ

---

(١) أخرجه البخاري . (٢) أخرجه مسلم .

أو الجدل . فما عرفت البشرية دين يدفع أتباعه للعلم والتعلُّم مثل الإسلام . وقد أدَّى تشجيع العلم والعلماء إلى إفراز نَهْضَةٍ عِلْمِيَّةٍ وحضارية في العصر الأموي والعباسي والحكم العربي بكل من صقليَّة والأندلس . ولسنا بصدد سَرْدِ أمجاد الماضي والمباهاة بتاريخنا الحافل بالعلم الآن بعد أن تخلَّينا عن ثقافتنا وأصبحنا نغوص في الجهالة والظلام الروحي والفقر الفكري ، ومِنْ ثَمَّ فلا يَحِقُّ لنا أن نباهي بحضارتنا وقد جفيناها ، ولكنَّا نسوق ذلك تأكيدًا على أن تَدَهْوُرَ حال المسلمين ليس عَيْبًا في الإسلام وتعاليمه ، وإنما هو عَيْبٌ فيهم ، وأن الإسلام ليس مسؤولًا عن واقعهم المتدنِّي » (١) .

وبناءً على ما تقدَّم ، يمكن القول : بأن الإسلام لم يكن بأيِّ حال عائقًا أمام التقدُّم العلمي ، بل إنه على العكس من ذلك يقدِّر العلم والنشاط الفكري ، وينظر إلى خاصية التفكير لدى الإنسان على أنها الميزة التي تؤهِّله إلى الرُّقِيِّ فوق منزلة الملائكة . ولم يُعرف عن أيِّ دين آخر تقديره للعقل والتفكير بمثل هذا النحو وإعلاؤه له فوق كافة الأنشطة الإنسانية الأخرى . ومن ثَمَّ يؤكِّد محمد أسد أننا إذا ما طبَّقنا تعاليم الإسلام ومبادئه فلن نحيد عن العلم الحديث ، ويتحدَّث محمد أسد عن الهدف من التعليم الإسلامي فيقول :

« يجب أن تكون لدينا الرغبة والعزيمة للتعلُّم والتقدُّم ،

---

(١) المرجع السابق ( ص ٦٦ ) .

وأن نصل إلى درجة تضاهي الدول الغربية في تقدُّمها العلمي والاقتصادي . ولا ينبغي للمسلم أن يقنع بأن يرى الأمور من خلال منظورٍ غربي ، ولا أن يفكِّر من خلال الأنماط الفكرية الغربية ، ولا أن نستبدل بحضارتنا الروحية الإسلامية الحضارة المادية التجريبية الغربية ، سواء كانت رأسمالية أو ماركسية . فالعلم في حدِّ ذاته ليس شرقيًّا ولا غربيًّا ، فالمعرفة عالمية - مثلها مثل الحقائق الطبيعية في الكون - ولكن الزاوية التي يُنظر إليها من خلالها تختلف باختلاف الثقافات والدول . فعلوم الأحياء أو الفيزياء أو النباتات مثلًا ليست مادية أو روحانية في حدٍّ ذاتها فهي تعتمد على الملاحظة والتعريف وتجميع الحقائق للوصول إلى النتائج ، ولكن التحليل الفلسفي لهذه النتائج أو ما يُعرف بفلسفة العلم لا يعتمد على الحقائق والملاحظات فقط ، بل يعتمد بدرجة كبيرة على مفهومنا للحياة ومشاكلها . إذًا فالعلم المجرَّد الذي وصفناه بأنه غير روحي ولا مادِّي في ذاته قد يقودنا إلى تحليلات ومفاهيم متباينة تمامًا عن الكون . وقد تكون هذه التحليلات إما مادية أو روحية وفقًا لعقائدنا المسبقة وزاوية رؤيتنا للأمور . فالغرب مثلًا يرى الحقائق من خلال نظرته المادية واللادينية المبنيَّة على عقيدته وقناعاته المسبقة التي تنسحب على نظامه التعليمي ككلٍّ . إذًا فليس هناك تعارُضٌ بين الإسلام والعلوم الحديثة ، وإنما التعارُض بين المنظور الغربي والمنظور الإسلامي لهذه العلوم » .

وبناءً على ما تقدَّم يعتقد محمد أسد في خطورة الاعتماد على المصادر غير الإسلامية في استقاء العلم ، حيث إنها تنبع من أَصْلٍ ينافي تمامًا الأصول الإسلامية ، ومِنْ ثَمَّ تنافي الإسلام بالكلية . ويؤكِّد محمد أسد أنه لو اتَّبع المسلمون في الماضي ما أمرهم به دينهم من اجتهاد في طلب العلم والتعلم لكلِّ مسلم ومسلمة ما كانوا ليحتاجوا العلم الغربي اليوم ، وما كانوا ليلجأوا إلى مصادره التي تتنافى مع ثوابتهم ، فما أشبههم اليوم بسائر يسير في الصحراء فيغريه السراب فيلهث وراءه ، ولكن لن يغنيه هذا السراب ولن يرويه ؛ ولأن المسلمين قد أهملوا تراثهم وإمكانياتهم العلمية لسنوات طويلة فقد وقعوا في براثن الجهل والفقر بينما أمسكت أوربا بزمام عجلة التقدُّم للأمام . وسوف يستغرق إعادة الأوضاع إلى سالف عهدها زمنًا طويلًا . ويضيف أسد أنه حتى يحين ذلك الوقت ليس أمامنا خيار إلا أن نتبع « شاكرين » أساليب الغرب العلمية ومنهجيته في التعلُّم والإعلام . وكأننا يجب أن ندرك أنه علينا اتباع أسلوب العلم ومنجيته فقط ولا نزيد عن ذلك ، بمعنى أننا يمكن أن ندرس المحتوى العلمي للعلوم كما يقدِّمه الغرب دون أن نتأثَّر بفلسفته في العلم أو بفلسفة تحليل العلم . علينا أن نفيد من العلم دون أن نقع في أَسْرِ التبعيَّة الفكرية والسلوكية للغرب . فالعالم الإسلامي اليوم ليس في حاجة إلى منظور فلسفي جديد للعلوم ولكنه في حاجة

ماسة إلى تحديث آلياته وتقنياته وأساليبه في التعلم والتفكير .

وتشغل قضية دراسة العلوم مساحة كبيرة من فكر محمد أسد حيث إنه يرى ضرورة أن يدرك المسلمون أن عليهم الأخذ من الغرب جوهر العلم فقط وليس أسلوب تحليله ، ونظرًا لأهمية الفصل بين هذين الأمرين فقد تكرَّرت الإشارة إليه والحديث عنه في عدة مواقع من دراساته .

يقترح محمد أسد نموذجًا إسلاميًّا للتعليم يعتمد على الثوابت الإسلامية والمنظور الإسلامي للعلم يمكن من خلاله الاعتماد على العلم الغربي فقط فى العلوم الطبيعية والرياضيات على أن تدرس وفق الأسلوب الذي شرحناه سالفًا .

أما فيما يتعلَّق بالفلسفة والتاريخ والأدب فلا ينبغي أن تدرس من المنظور الغربي على الإطلاق ، بل يجب أن لا تأخذ مكانة الصدارة في المناهج الدراسية كما هو الحال اليوم . فالأسلوب الذي تعرض به هذه المواد يعتمد على المبالغة في إرساء المبادئ والقيم الغربية بحيث تفتن بها عقول الشباب الغضة وتتأثر بأسلوب الحياة وروح الحضارة الغربية دون الإدراك الكامل والواعي لسلبيات هذه الحضارة وأوجه القصور والنقص فيها .

ولا ينبغي أن نغفل أن منهجية تدريس الأدب الأوربي في كثير من المعاهد الإسلامية تعمل على تغريب الشباب المسلم عن دينه وعقيدته ، وعلى مثل هذا النحو يتمُّ تدريس تاريخ العالم وتحليله من منظور غربي ليحقِّق ذات الهدف .

ويرفع المنهج الغربي في تناوُل التاريخ نفس الشعار العنصري القديم الذي يقسم العالم إلى « الرومان والبرابرة » ، فالأسلوب الذي يتمُّ تناوُل التاريخ من خلاله يهدف إلى إعلاء قيمة الحضارة الغربية وإظهار تفوُّقها على ما سواها من الحضارات في العالم فكلُّ ما يقدِّمه الغرب أفضل من أي شيء وكل شيء يمكن أن يقدِّمه العالم كله .

وقد تعوَّد الغرب منذ الدولة الرومانية على أن ينظر إلى الاختلافات بين الشرق والغرب من خلال المرجعيات والمحددات التي يضعها هو . ويعتمد الفكر الغربي على الاعتقاد بأن الحكم على تقدُّم الإنسانية وتطوُّرها يمكن أن يتمَّ فقط من خلال التجربة الحضارية الأوربية . وما مِنْ شَكٍّ أن هذه النظرة المحدودة والضيقة للأمور والتي تعتمد على المرجعية القياسية الأوربية تفرز مفاهيم مشوَّشة وغير سوية يصعب معها على الأوربيون قبل غيرهم إدراك الأبعاد الحقيقية للتاريخ ؛ إذ يَبْدُو وكأن العالم كله قد خُلِقَ من أجل الحضارة الغربية وحدها ، وكأن كل الحضارات الأخرى إنما وجدت لكي تُهَيِّئ المناخ المناسب لازدهار الحضارة الغربية .

عندما يدرس الشباب من الشعوب غير الأوربية التاريخ من هذا المنظور تتكوَّن لديهم - لا إراديًّا - شعورٌ داخلي بالنقص والدونية حيال ثقافاتهم وحضاراتهم ويحكمون من خلاله على ماضيهم ويحد من إمكانياتهم المستقبلية فلا يرون

احتمالية نجاحهم إلَّا من خلال خضوعهم الكامل لمثل هذه الحضارة الغربية .

ويهيب محمد أسد بالمسؤولين في العالم الإسلامي أن يبذلوا قصارى جهدهم لمراجعة مناهج التاريخ التي يتمُّ تدريسها في المعاهد والمؤسسات التعليمية الإسلامية . ويشير محمد أسد إلى أنه ما من شكٍّ أن هذه المهمَّة شاقَّةٌ وتحتاج إلى وقت طويل لتنفيذها ؛ إذ تستلزم مراجعة مناهج تاريخنا وإعادة صياغتها من منظور إسلامي ثم دراسة تاريخ العالم على هذا النحو كذلك ، ولكنها -كما يؤكِّد محمد أسد- ليست مستحيلة ولكنها ضرورية . وأخيرًا يحذِّر محمد أسد من مغبَّة عدم القيام بهذه المهمَّة ؛ إذ إن الأجيال المسلمة سوف تستمرُّ في السَّيْر في ركاب الحضارة الغربية ويتم حقنها بسم كراهية الإسلام فتزداد عقدة الدونية عُمْقًا وتَأْثِيرًا .

* * *

## ملحق

# معالم الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس ودورها في نهضة الغرب (*)

### تمهيد :

قبل أن نتناول الموضوع المُعَنْوَن له بالأعلى يَحْسُنُ بنا أن نذكر - بإيجازٍ - معنى كلمة الحضارة لغةً واصطلاحًا ، فنقول :

الحضارة كما جاء في « المعجم الوسيط » : الإقامة في الحَضَر ( والحَضَرُ : القرى والمدن والريف ) ، وهي ضدُّ البداوة ( أي : الهمجية والتوحُّش ) ، وهي مرحلة سامية من مراحل التطوُّر الإنساني والحضارة : جملة مظاهر الرُّقِيِّ العلمي والفنِّي والأدبي والاجتماعي في مجتمع من

---

( * ) في شهر ديسمبر سنة ( ٢٠٠٣م ) عُقد في مدينة غرناطة الإسبانية مؤتمرٌ دولي بعنوان : « تأثير الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس على نهضة الغرب » وقد شارك في أعمال المؤتمر مؤلِّف هذا الكتاب حيث قدَّم هذا البحث باللغة العربية . وبتلك المناسبة زار في صحبة الأخ الإسباني عبد الصمد رومرو ( قبل اعتناقه الإسلام كان اسمه Antonio Romero ) قبر العلامة محمد أسد الذي دُفن في غرناطة على قرب من قصر الحمراء المشهور Alhambra » . وبما أن موضوع هذا البحث يعالج قضايا مهمة تتعلَّق بالإسلام والغرب رأينا أنه من المناسب والمفيد أن ندرجه كملحق لهذا الكتاب في طبعته الإنجليزية .

المجتمعات ، أو في مجتمعات متشابهة [١] .

وتُعَرَّفُ الحضارة عند أهل الخبرة والاختصاص بأنها : « نتاج الإنسان المدني الاجتماعي بخصائصه الفكرية والروحية والوجدانية والسلوكية تحقيقًا لأهداف أمته ، وما ارتضته هذه الأمة من قِيَمٍ ومُثُلٍ ومبادئ ... » [٢] .

**ومن هذا التعريف يمكن أن نستخلص أمرين :**

١ - الحضارة هي طريقة الحياة التي ارتضتها الأمة لنفسها في جميع المجالات الروحية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والعمرانية ، والمادية ... المنبعثة من قيمٍ معيَّنة ومُثُلٍ محدَّدة .

٢ - للحضارة جانبان : الأول : مظاهر الرُّقِيِّ المادي الذي يشمل جوانب الحياة من صناعة ، وتجارة ، وزراعة ، واختراع ، وفنون ... والجانب الثاني : مظاهر الرُّقِيِّ المعنوي الذي يتَّصل بالقِيَم الروحية ، والقواعد الأخلاقية ، والإنتاج الفكري ، والإبداع الأدبي .

وبناءً على هذا التعريف والاستخلاص نقول : والحضارة هي طريقة حياة ، نشأت بعد أن بدأ الناس يعيشون في مُدُنٍ

---

(١) انظر : المعجم الوسيط ( ١/١٨٦ ) مادة « حضر » بتصرف ، إصدار مجمع اللغة العربية في القاهرة ، الطبعة الثالثة .

(٢) انظر : علوان ، عبد الله ناصح : معالم الحضارة في الإسلام وأثرها في النهضة الأوربية ( ص ٧ ) ، دار السلام ، القاهرة ، طبعة ثالثة ( ١٤٢١هـ - ٢٠٠١ م ) .

أو مجتمعاتٍ نُظمت في شَكْلِ دُوَلٍ . وهي تشمل الفنَّ والتقنية وشكل السلطة وكلَّ شيء يتعلَّق بطريقة حياة المجتمع . ومن هذا المنظور فإن الحضارة مماثلة للثقافة ، إلَّا أن الثقافة تشير إلى وسيلة ما من وسائل الحياة ، وتشمل أسلوب الحياة البسيطة والمعقَّدة ، أما كلمة الحضارة فتشير فقط إلى أساليب الحياة التي تتصف بنُظُمٍ اقتصادية وحكومية واجتماعية معقَّدة ؛ ولذا ، فبالرغم من أن كلَّ إنسان يعيش في إطار ثقافة ما ، إلا أنه لا يعيشُ كلُّ فَرْدٍ في إطار حضارة معيَّنة (١) .

## أسس الحضارة في الإسلام :

كانت فترة ظهور الإسلام الفترة التي أعادت صياغة الإنسان في الجزيرة العربية ، وأرست لبنات حضارة جديدة أخرجت الناس من الظلمات إلى النور ، ووضعت الأساس لبناء الإنسان في الإسلام . وكان الوحي هو الذي يُعيد صياغة الفرد في معتقداته وأفكاره ، ويزكِّيه ، وينشئ الروابط ، ويؤسِّس الصَّرْحَ الذي يقوم عليه بناء الأمة . وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ

---

(١) انظر : الموسوعة العربية العالمية ( ٤١٢/٩ ) مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع ، المملكة العربية السعودية ( ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م ) .

﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦] .

**ومن أبرز الأسُس التي قامت عليها الحضارة الإسلامية** (١) :

● **عقيدة التوحيد** : حيث أرسى الإسلام مفهومًا للتوحيد عندما خاطب مشركي مكة ذاكرًا لهم أنه لا يكفي ما هم عليه من توحيد الربوبية ، أي : الإقرار بأن اللَّه هو ربُّ كلِّ شيء وخالق كلِّ شيء ، بل لا بد أن يقترن هذا الإقرار بالتوجُّه بالعبادة للَّه وحده لا شريك له من مخلوقات اللَّه . وقد ترتَّب على هذا الإقرا آثارٌ إيجابية في بناء المسلمين ؛ لأن الناس عندما يُقبلون على الخضوع للَّه وحده فإنهم سيحلُّون حلاله ويحرِّمون حرامه ويجاهدون في سبيله لإرساء قِيَمِ الحق والعدل والمساواة والكرامة والعلم النافع .

● **العدل** : وقد ركَّزت نصوص القرآن والسنة على قضية العدل ، فمن الأمثلة القرآنية قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ﴾ [النحل: ٩٠] وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥٨] .

---

(١) يراجع في هذه الأسُس : الموسوعة العربية العالمية ( ٩/٤١٣ - ٤١٤ ) بتصرُّف .

ومن الأمثلة الواردة في السنة النبوية قولُ الرسول ﷺ : « **إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ﷻ – وكلتا يديه يمين – الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا** » (١)

ومن الأمثلة التطبيقية للعدل موقفُ الرسول ﷺ من حبِّه وابن حبِّه أسامة بن زيد بن حارثة ، وقد جاء مستشفعًا في امرأة مخزومية سرقت وقد تقرَّر قطع يدها كما يروى في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن قريشًا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا : ومن يكلِّم فيها رسول الله صلَّ اللَّهم عليه وسلم ؟ فقالوا : ومن يجترئ عليه إلَّا أسامة بن زيد حب رسول الله صلَّ اللَّهم عليه وسلم ، فكلمه أسامة ، فقال رسول الله ﷺ : « **أتشفع في حدٍّ من حدود الله ؟!** » ، ثم قام فاختطب ، ثم قال : « **إنما أهلك الذين قبلكم أنهُم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها !** » (٢) .

● **العلم** حيث جاء الإسلام ليُعيد ترتيب العقل الإنساني ، ثم يُطلقه ليعرف ربَّه من خلال آياته في الكون والنفس ، وكان أول ما نزل من الوحي قوله تعالى : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق : ١] ، وهو يختصُّ بالعلم . وامتنَّ الله على محمد ﷺ بالعلم في مواضع كثيرة من القرآن

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الإمارة ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص .
(٢) رواه البخاري ومسلم في مواضع من صحيحيهما .

الكريم ، وامتنَّ على المسلمين بأن بَعَثَ فيهم رسولًا معلِّمًا كما في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾
[ آل عمران : ١٦٤ ]

وممَّا يدلُّ على اهتمام الإسلام بالعلم أن النبي ﷺ جعل فداء بعض أسرى بَدْرٍ تعليم الواحد منهم عشرة من أبناء الأنصار القراءة والكتابة . هذا وقد وردت أحاديث كثيرة في الحثِّ على تحصيل العلم النافع ، ممَّا كان له أثرٌ فعَّالٌ في بناء الحضارة الإسلامية .

● **الأخلاق الفاضلة** : إذ إن القرآن الكريم دستور شامل لتربية الأفراد والجماعات تربية صحيحة في شتى مجالات الحياة ، والنبي ﷺ يقول : « **إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** » ، وفي رواية : « **صَالِحَ الأخلاق** » [(١)] ، فجعل إتمام مكارم الأخلاق أو صالح الأخلاق هدفًا لبعثته ، وغاية لرسالته ، وكفى بذلك تنويهًا وتشريفًا لقيمة الأخلاق في دعوته .

---

( ١ ) رواه البخاري في « الأدب المفرد » رقم ( ٢٧٤ ) وابن سعد في الطبقات ( ١٩٢/١ ) وأحمد في المسند والحاكم في المستدرك ( ٦١٣/٢ ) وصحَّحه ووافقه الذهبي . انظر : الألباني محمد ناصر الدين : سلسلة الأحاديث الصحيحة ( ١١٢/١ ) الحديث رقم ( ٤٥ ) مكتبة المعارف الرياض ( ١٩٩٥م ) .

ويمكن القول : بأن جميع القيم التي أسست لقيام الحضارة الإسلامية في العهد النبوي هي من آثار تلك التربية الإسلامية الصحيحة للفرد والجماعة . وتتميَّز هذه التربية التي بدأت بدار الأرقم بن أبي الأرقم في مكة بأنها تربية أخلاقية شاملة تتناول كلَّ شأنٍ من شؤون الإنسان المسلم ، كما أنها تقرن القول بالعمل .

● **العمل** : وهو الذي يشيِّد صَرْحَ الحضارة . والإسلام يدعو للعمل بل هو دينٌ عملي ، ونبيُّ الإسلام كان يتعوَّذ من العجز والكسل .

ولذلك قرَّر عليه الصلاة والسلام أن الذي يخرج لطلب الرزق لأبويه الشيخين أو لذريته الضعاف أو ليعفَّ نفسه من مذلَّة السؤال بأنه في سبيل اللَّه .

وحثَّ الإسلامُ الناسَ على عمارة الأرض في شتى الميادين انطلاقًا من قول اللَّه ﷻ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك : ١٥] ، ومن قوله : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ ﴾ [التوبة : ١٠٥] والأحاديث النبوية التي تدعو للعمل والسعي من أجل طلب الرزق وعمارة الأرض كثيرة جدًّا ، وهي التي دفعت المسلمين لإقامة حضارة عالَمية جعلتهم في طليعة الشعوب الحضارية .

فهذه هي أسُس الحضارة الإسلامية وهي تمثِّل المبادئ الإصلاحية التي تضمَّنها الدين الإسلامي الحنيف . وبتلك المبادئ أرسل اللَّه رسولَه محمدًا ﷺ لتنظيم هذا العالم وإصلاحه ، وقيادته إلى الطريق السليم الذي يوجِّهه إلى الخير والسعادة ، وينأى به عن الشر والشقاء ، ثم تركها الرسول الكريم إلى الخلفاء الذين جاؤوا من بعده .

## أهمُّ خصائص الحضارة العربية الإسلامية :

من أهم خصائص الحضارة الإسلامية أنها حضارة التوازُن والوسطية بحيث جمعت بين العلم والدِّين وبين الروح والمادة ولم تفرِّق بين الدنيا والآخرة ، وهذا في حقيقة الأمر يميِّزها عن الحضارات الأخرى التي أكثر ما عُنيت بالجانب المادي من الحياة ، والجانب الجسدي والغريزي من الإنسان ، فجعلت إشباع اللذات العاجلة من الدنيا أكبَرَ همِّها ومبلغَ عِلْمِهَا ، ولم تجعل للَّه ولا للآخرة مكانًا مذكورًا في فلسفتها وفي نظامها الفكري والتعليمي . فالحضارة الإسلامية قد وصلت الإنسان بالله ، وربطت الأرض بالسماء ، وجعلت الدنيا للآخرة ، ومزجت الروح بالمادة ، ووازنت بين العقل والقلب ، وجمعت بين العلم والإيمان ، وحرصت على السُّمُوِّ الأخلاقي حِرْصَهَا على الرُّقِيِّ المادي . ولذلك كانت – بحق – حضارة روحية مادية ، مثالية واقعية ، ربانية إنسانية ، أخلاقية عمرانية ،

فردية جماعية ، أي : كانت حضارة التوازن والوسطية ، التي قامت عليها أمة وسط ، كما وَصَفَهَا اللَّه تعالى في قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [ البقرة : ١٤٣ ] (١) .

ومن هنا كان من مظاهر الحضارة الإسلامية أنها استطاعت أن تؤثّر تأثيرًا كبيرًا في جميع الشعوب التي خضعت للدولة الإسلامية ، بل إن الثقافة الإسلامية قد طغت على الثقافة الأصلية للشعوب التي انتشرت فوق ربوعها راية الإسلام . ومن أعجب العجائب أن يتمّ هذا التحوُّل الفكري العظيم بدون إكراهٍ أو إجبارٍ ، ولهذا نجد كثيرًا من الباحثين يأخذهم العجب حين يجدون أن ما عجز عنه الأغارقة والفرس والرومان عندما خضع الشرق لهم ، قد قدر عليه المسلمون ، فتلك الحضارات التي أخضعت الشرق لها ، لم تستطع أن تؤثّر في عقائد الشعوب ولا في لغاتها ، ولا في ثقافتها ، في حين أن المسلمين قد استطاعوا أن ينشروا حضارتهم وثقافتهم ودينهم ولغتهم في البلاد التي فتحوها ، وأصبحت هذه الشعوب فيما بعد تنشر رسالة الإسلام ، وتدعو بدعوة القرآن ، وتتكلَّم بلغة العرب والإسلام .

وقد أشار العالم الفرنسي الشهير الدكتور غوستاف لوبون إلى هذه الظاهرة بقوله : « ومن ذلك أن مصر الذي كان

---

( ١ ) راجع : القرضاوي د . يوسف : السنة مصدرًا للمعرفة والحضارة ( ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ ) دار الشروق القاهرة ( ١٩٩٧م ) .

يلوح أنها أصعب أقطار العالم إذعانًا للمؤثِّرات الأجنبية ، نسيت في أقل من قرن واحد مرَّ على افتتاح عمرو بن العاص لها ، ماضي حضارتها الذي دام نحو سبعة آلاف سنة ، معتنقةً دينًا جديدًا ، ولغةً جديدة ، وفنًّا جديدًا ، اعتناقًا متينًا دام بعد تواري الأمة التي حملتها عليه » (١)

وترجع هذه النتائج المذهلة التي حقَّقتها الحضارة الإسلامية إلى عدة أمور ، منها مصدرها الإلهي ، ومقوِّماتها الفكرية ، ونزعتها الإنسانية ، وشمولها الثقافي ، وحيويَّتها النابضة ، ومَنْهَجُها العلمي ، ممَّا جعلها تمثِّل الأمل الذي كانت الشعوب تتطلَّع إليه ، ولذلك ارتضت الشعوب المختلفة - ذات الحضارات المتباينة - أن تتخلَّى عن ثقافتها الأصلية وعقائدها السابقة ، وتدخل في الإسلام فتكون عقيدته دينًا لها ، وتكون تعاليمه لها شريعة ومنهاجًا ، وتكون لغة القرآن هي لغتها الأصلية (٢) .

ومن خصائص الحضارة الإسلامية أنها أشاعت روح العدل والإنصاف والتسامُح بين الناس ، وكان من ثمرات ذلك أن يتعايش الناس - ذوو العقائد المختلفة والأجناس المتباينة - متجاورين ، يسودهم الأمن والسلام والمحبة ، فتجاور المسجد والكنيسة والمعبد في كل قُطْرٍ ، بل في كلِّ

---

(١) انظر : الملا أحمد علي : أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية ( ص ١٤ ) دار الفكر دمشق ( ١٩٩٦م ) .

(٢) المصدر السابق .

مدينة إسلامية ، وليس ذلك إلَّا لأن تعاليم الدين الإسلامي الحنيف تقول : إنه لا يجوز إجبار أحد على تغيير دينه ومعتقده ، فحرية الاعتقاد مكفولة في ظل النظام الإسلامي ، واللَّه تعالى يقول : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

## الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس :

كانت شبه الجزيرة الأيبيرية ( Iberian Peninsula ) قبل الفتح الإسلامي تحت حُكْم القُوط الغربيين ( Visigoths ) . وقد بدأ احتلال القُوط ( Goths ) لهذه الجزيرة في القرن الخامس الميلادي ، بعد طَرْدِهم للوندال ( Vandals ) ، إحدى قبائل الجرمانية المتبربرة ، الذين اتجهوا بعد ذلك إلى احتلال الشمال الإفريقي وطُردوا منها على يد الرومان سنة ( ٥٤٣م ) . احتلَّ الوندال شبه الجزيرة الأيبيرية منذ القرن الثالث الميلادي ، ومن اسم « الوندال » جاء اسم « فاندلسيا » ( Vandalusia ) ، أي : بلاد الوندال ، ثم نُطقت بالعربية : الأَنْدَلُس [1] .

(١) راجع : البكري عبد اللَّه بن عبد العزيز : جغرافية الأندلس وأوربا ( ص ٥٩ ) طبع بيروت ( ١٩٦٨م ) ، ومؤنس حسين : فجر الأندلس ( ص٢ ) وبعدها القاهرة ( ١٩٥٩م ) ، وعاشور سعيد عبد الفتاح : أوربا العصور الوسطى ( ١/٨٨ ) القاهرة ( ١٩٦٦م ) ، وعِنان محمد عبد اللَّه : دولة الإسلام في الأندلس ( ١/٢٧-٢٩ ) القاهرة ( ١٩٦٩م ) ، =

وقد استبدَّ القُوط بالحكم ، لا سيما قُبيل الفتح الإسلاميِّ ، وبسوء سياستهم ساءت حالة إسبانيا واضطربت حياة سكّانها حيث انتشرت الفوضى والفساد وأصبحت غالبية الشعب تعيش معيشة ضنكة لسوء الأحوال المعيشية ولسياسة الاستغلال التي جعلت الشعب الإسباني لعبة في أيدي الطبقة الحاكمة المترفة . وكان الشعب الإسباني - مثل غيره من الشعوب الأوربية - مقسَّمًا إلى طبقات عديدة ، هُضمت حُقُوقُهَا مع وجود الفوارق الطبقية . وقبل الفتح الإسلامي لإسبانيا بسنة أو تزيد قام أحد رجال الجيش واسمه لُذْرِيق ( Rodrigo ) ، بالاستيلاء على السلطة وعَزْل الملك غيطَشة ( Vitiza ) ، مما زاد الاضطرابات والصراعات الداخلية [١] .

فتح العرب المسلمون بلاد الأندلس بقيادة طارق بن زياد في رمضان سنة ( ٩٢ - ٧١١ هـ ) ، بعد أن انتصروا على جيوش القُوط ، وأسَّسوا دولة إسلامية حكمت ثمانية قرون من الزمان ، أي : من نهاية القرن الأول حتى نهاية القرن التاسع الهجري ( ٩٢ - ٨٩٧ هـ ) ، الموافق للفترة من

---

El-Hajji: Andalusian Diplomatic relations with Western = Europe, 32-33, Beirut, 1970.

(١) راجع : الحجّي ، د . عبد الرحمن علي : التاريخ الأندلسي ( ص ٢٩ ، ٣٠ ) دار القلم دمشق الطبعة الخامسة ( ١٩٩٧م ) ، والشطاط د . علي حسين : تاريخ الإسلام في الأندلس ( ص ١٨ - ٢٠ ) دار قباء القاهرة ( ٢٠٠١م ) .

بداية القرن الثامن حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي ( ٧١١ - ١٤٩٢ م ) .

وقد أدَّت الأندلس في عهد ولاتها الذين شجَّعوا العلم ورعوا حقوق العلماء ، دورًا مهمًّا في نقل الحضارة العربية الإسلامية من الشرق إلى الغرب ، فقامت بلادُ الأندلس بحمل مشاعر الفكر والمعرفة تضيء ما حولها من ظلام الغرب وتَخَلُّفِهِ ، قبل أن يبدأ ما عُرف بـ « عصر النهضة » ، الذي كانت أوربا تعيش قبله في جهل وظلام فكري وروحي .

وقد تميَّزت الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس بمقوِّمات عدَّة أهمُّها : العقيدة - وهي الدين الإسلامي - واللسان - وهو اللغة العربية . ومن ثَمَّ اختلفت عن كلِّ الحضارات التي سبقتها أو لحقت بها ؛ إذ إن هويتها إسلامية عربية ، تحمل قِيَمَ الإسلام وعزَّتَه مع فصاحة اللسان العربي وبيانه .

هذا وقد مرَّت الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس بمراحل عديدة من حيث القوة والضعف ، ويقول المؤرِّخون : إنها بلغت ذروة قوتها ونُضْجِهَا في عهد الخلافة الأموية ، وعلى وجه التحديد أيامَ الخليفة عبد الرحمن الناصر ( ٣٠٠ - ٣٥٠هـ ، ٩١٢ - ٩٦١ ) وابنه الحَكَم بن عبد الرحمن ( ٣٥٠ - ٣٦٦هـ ، ٩٦١ - ٩٧٦م ) [1] .

---

(١) راجع : الموسوعة العربية العالمية ( ٤١٧/٩ ) .

عرفت الأندلس في هذا العصر شعراء كبار ؛ كابن عبد ربه ، وابن هانئ ، وكبار مؤرِّخيها ؛ كالرازي ، وابن القُوطية ، كما عرفت فنَّ التأليف الموسوعي ؛ كالعِقْد الفريد ، وظهرت في هذا العصر المؤلَّفات الفلسفية على يد ابن مسرَّة . كما حظيت الدراسات العلمية في مجال الفلك والرياضيات باهتمام طيِّب ، وإن كان أقل شأنًا من الاهتمام بالدراسات الأدبية . وعاش في هذا العصر محدِّثون ومفسِّرون وفقهاء يعتبرون من الأئمة الأعلام ، ولعلَّ ما بلغته مكتبة الخليفة الناصر من ثراء وغنًى يعدُّ دليلًا على تلك النهضة الحضارية الشاملة التي عاشتها الأندلس في هذا العصر .

ولما انهارت الدولة الأموية ، انقسمت الأندلس إلى إمارات وطوائف ، ورغم تطاحُن تلك الدويلات ظلَّت حركة الفكر والأدب مستمرَّة . وعرفت الأندلس في هذه الفترة المضطربة ( ٤٠٠ - ٤٨٤هـ ، ١٠٠٩ - ١٠٩١م ) طائفة من أعظم مفكِّريها وأدبائها وشعرائها ، فقد كان أكثر حكَّام الطوائف وأمرائها من رجال الفكر والأدب ، ومن ثمَّ حظيت الحركة الثقافية بتشجيعهم وحفزهم لها . وعاش في هذه الفترة الفيلسوف والعالم الكبير ابن حزم ( ت ٤٥٦هـ ) ، وابن حيَّان مؤرِّخ الأندلس ( ت ٤٦٩هـ ) ، وابن زيدون درَّة الشعر والشعراء ( ت ٤٦٩هـ ) .

وعندما استولى المرابطون على الأندلس بقيادة يوسف بن تاشفين في أواخر القرن الخامس الهجري بدأ عَصْرُ ازدهار

جديد تألَّقت فيه الأسماء اللامعة في مختلف مجالات المعرفة .

وفي عصر المرابطين بلغت الأندلس أعلى درجات الازدهار الأدبي والفكري والحضاري . فقد كانوا كما يقول المستشرق الإسباني جوليان روبيرا : « هم الشعب الأوربي الوحيد الذي ازدهرت عنده الفنون بشتَّى صنوفها ، والآداب والفلسفة وغيرها ازدهارًا عظيمًا . وحينما نهضت أوربا نهضتها الفلسفية والفنية والعلمية والأدبية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين كانت الأندلس من أكبر شعب أوربا تأثيرًا في الفلسفة والفلك والطبِّ والقصص والشعر » [1] .

ومن أعلام هذا العصر : ابن باجَه ( ت ٥٢٣هـ - ١١٣٨م ) الذي نبغ في الرياضيات والفلك والفلسفة وألَّف شروحًا مستفيضة على مؤلَّفات أرسطو والفارابي ، وابن بسَّام ( ت ٥٤٢هـ ) صاحب « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » ، وفي مجال الطب نبغ أيضًا علي بن عبد الرحمن الخزرجي من طُليطلة ، وهو من أشهر الأطباء ، وكذلك العلامة الطبيب والفلكي أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت ، وخلف بن عباس القرطبي ( ت ٥١٦هـ ) وغيرهم [2] .

ولما حلَّ الموحِّدون حكَّامًا للأندلس ( ٥٤١ - ٦٦٨هـ ،

---

(١) انظر : الموسوعة العربية العالمية ( ٤١٨/٩ ) .

(٢) راجع : الأندلسي ابن سعيد : المُغْرِب في حُلَى المغرِب ( ١٠٨/٢ ) تحقيق د . شوقي ضيف ، القاهرة ( ١٩٦٤م ) والحجي ، عبد الرحمن علي : التاريخ الأندلسي ( ص ٤٥٠ ، ٤٥١ ) .

١١٤٦ - ١٢٦٩م ) واصلت الحركة العلمية والثقافية سَيْرَهَا رغم تدهوُر الأوضاع السياسية . ومن الأسماء اللامعة في هذا العصر : ابن بَشْكُوَال ( ت ٥٧٨هـ ) صاحب كتاب « الصلة » ، وابن طُفيل ( ت ٥٨١هـ - ١١٨٤م ) صاحب « رسالة حي بن يقظان » ، وتعتبر هذه الرسالة مرجعًا مهمًّا جدًّا في مجال الأدب والفلسفة ، وابن رُشْد ( ت ٥٩٤هـ - ١١٩٨م ) الفيلسوف الكبير المعروف في الغرب باسم Averroes ، وقد ألَّف مؤلَّفات هامة في المنطق وعلم الكلام والفلسفة والقانون والطب وغيرها من العلوم العقلية . ومن حيث الموضوعية والأهمية تقارن مؤلَّفات ابن رُشد الأندلسي بكتب العَلَمَيْنِ الكبيرين في الشرق العربي الإسلامي ، وهما : الفارابي وابن سينا . ويرى بعض الباحثين الغربيين أن ابن رُشْد قد تفوَّق عليهما في بعض شروحه لمؤلَّفات أرسطو ، وهو معروف في القرون الوسطى بـ « مؤلِّف الشروح » كما سمَّاه الشاعر الإيطالي الكبير دانتي ( Dante Alighieri ) في « الكوميديا الإلهية » Divina Commedia حيث قال فيه : Averroes che'l gran commento feo . وقد صنَّف ابن رُشْد أيضًا شرحًا فريدًا على كتاب « الدولة » لأفلاطون ، كما أنه ألَّف كتاب « تهافُت التهافُت » وهو في الردِّ على كتاب « تهافُت الفلاسفة » للإمام الغزالي . ويمكن القول : بأن أوربا إنما تعرَّفت على مؤلَّفات أرسطو وغيره من فلاسفة

الإغريق من خلال شروح ابن رُشْد الأندلسي التي تُرجمت إلى اللاتينية والعبرية وحُفظت تلك الترجمات بأكملها ، كما تمّ الاحتفاظ ببعض النسخ الأصلية باللغة العربية . وقد نُشرت شروحُ ابن رُشْد باللغة اللاتينية من جديد سنة ( ١٩٦٧م ) في إطار منشورات Omnia Opera Aristotelis Cum Comentariis Averrois(١) .

ولما اضمحلّت دولة الموحّدين وضعُف أمرُهم بالأندلس والمغرب العربي في أوائل القرن السابع الهجري بعد أن دام ملكهم نحو مائة وثلاثين سنة ، انحصرت الدولة الأندلسية منزوية في الركن الجنوبي الغربي في مملكة صغيرة سُمّيت مملكة غرناطة أو الأندلس الصغرى أنشأها بنو الأحمر سنة ( ٦٣٥هـ - ١٢٣٨م ) ، واستمرّت حتى سنة ( ٨٩٧هـ - ١٤٩٢م ) ، أي : القرنين ونصف قرن من الزمان ، وقد اعتُبر من الغرائب استمرارُ مملكة غرناطة هذه المدة ، رغم صِغَرِهَا وقلّة عدد سكّانها ، محافظةً على ما بقي للمسلمين من سلطان سياسي ووجود حضاري معطاء (٢) ورغم اضطراب الأوضاع السياسية والاجتماعية ظهرت في هذه الفترة أسماء لامعة في شتّى مجالات العلم والمعرفة ،

---

( ١ ) انظر : John Esposito: "The Oxford History of Islam" الترجمة الصربية ( ص ٢٩٩ ) بلغراد ( ٢٠٠٢م ) .

(٢) راجع : الحجي ، عبد الرحمن علي : التاريخ الأندلسي ( ص ٥٠٩ ) وما بعدها .

منها : العالم النباتي والطبيب الصيدلي الشهير ابن البيطار المالقي الذي رَحَلَ من الأندلس إلى المغرب ، ثم إلى مصر والشام ، وتُوُفِّي بدمشق سنة ( ٦٤٦هـ ) ، وشيخ المتصوِّفة الأكبر محيي الدين بن عربي الذي نَزَلَ إلى المشرق ، وتوفِّي بالشام سنة ( ٦٣٨هـ ) ، وكذلك ابن سعيد الأندلسي صاحب « المُغْرِب في حُلَى المَغْرِب » المتوفَّى سنة ( ٦٧٣هـ ) ، والإمام أبو عبد اللّه القرطبي ، صاحب تفسير « الجامع لأحكام القرآن » الذي نَزَلَ إلى مصر وتوفِّي بها سنة ( ٦٧١هـ ) ، وكذلك ابن خَلْدُون ، مؤسِّسُ عِلْمِ الاجتماع المتوفَّى ( ٨٠٨هـ ) ، وغيرهم .

## مجالات الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس :

شملت الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس مجالات متعدِّدة تركت بصماتها الواضحة على الحياة في شبه الجزيرة الأيبرية وأوربا . لقد أدَّى المناخ الحضاري الذي تنسَّمته الأندلس إلى العناية بجوانب العلم والفكر ، فشُيِّدت المدارس وافتُتحت المكتبات ، واقتُنيت الكتب حتى أصبح معظم الناس قادرين على القراءة والكتابة ، فازدهرت الآداب والفنون ، وارتقت المباني والمرافق العامة والخاصة بفنٍّ إسلامي أصيل . وكان من ثمار هذه الحركة أن أصبحت قرطبة عاصمةً للحضارة ليس في إسبانيا وحدها ، ولكن في الغرب قاطبة . وقد أنشئت فيها مدارسُ للطبِّ

والهندسة والعلوم المختلفة ، وبُنيت فيها المستشفيات ومعامل الكيمياء ومراصد الفلك ، وكانت جامعة قرطبة منارة شامخة للفكر والثقافة وحامية لواء الحضارة العربية الإسلامية الشاملة . ومن هنا أصبحت قرطبة موطنًا للعلوم ، يقيم فيها أعداد كبيرة من العلماء والخبراء في علوم الطبِّ والصيدلة والكيمياء والفلك والرياضيات وعلم النبات وغيرها من العلوم الطبيعية ، ونشطت فيها علوم عقلية مثل الفلسفة والمنطق والترجمة وغير ذلك ؛ ولذلك كان يقصدها طلاب العلم والمعرفة من شتَّى البلدان الأوربية [١] .

ولم تختصر هذه الحركة العلمية والحضارية العظيمة على قرطبة وحدها ، بل شملت المدن الإسبانية الإسلامية الأخرى مثل : غرناطة ( Grenada ) وطُليطلة ( Toledo ) وغيرها من المدن التي كانت تخضع للحكم العربي الإسلامي . وتذكر المصادر التاريخية أن الشباب من أوربا - وخصوصًا من إيطاليا وفرنسا - كانوا يتزاحمون للدراسة في جامعات الأندلس الإسلامية ، وممَّن دَرَسَ في جامعة قرطبة : جربرت ( Gerbert ) الذي أصبح فيما بعد البابا في فاتيكان وتسمَّى باسم سلفستر الثاني ( Silvestar II ) ، وهو الذي نقل إلى

---

(١) راجع : الملا أحمد علي : أثرُ العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية (ص ١٢٨ ، ١٢٩ ) بتصرُّف ، والموسوعة العربية العالمية ( ٤١٨/٩ ) باختصار .

إيطاليا علم الرياضيات والأرقام العربية (١) . وتذكر هذه المصادر أيضًا أن أوربا قد تعرَّفت على أعمال أرسطو من خلال مدينة طُليطلة الأندلسية التي نشطت فيها حركة ترجمة من العربية إلى اللاتينية (٢) ، فتُرجم فيها أيضًا عديد من مؤلَّفات أفلاطون وغالن ، وكذلك أعمال ابن سينا والفارابي وابن طُفيل وابن باجه وابن رُشْد الفلسفية ، ومؤلَّفات ابن سينا والرازي الطبية . وسرعان ما انتشرت هذه الترجمات في أوربا وأصبحت مراجع هامة وضرورية في كبرى جامعاتها (٣) ، واعتُبر كتاب « القانون في الطبّ » لابن سينا ( المراجع اللاتينية تسمِّيه Avicenna ) مرجعًا أساسيًّا للدراسات الطبية في أوربا قرابة ستة قرون ، ولذلك سُمِّي بـ « الإنجيل الطبِّي » (٤) .

هذا ، وقد استمرت حركة ترجمة واسعة من العربية إلى اللاتينية أثناء الاسترداد الإسباني ( Reconquista ) ، فبعد

---

( ١ ) راجع : Busuldzic, Mustafa: "Muslims in Europe" – « المسلمون في أوربا » ( ص ٧٨ ، ٧٩ ) سرايفو ( ١٩٩٧ ) .

( ٢ ) راجع : Gerald Brenan, "The Literature of the Spanish people" – الأدب الإسباني ( ص ١٠ ) الترجمة الصربية بلجراد ( ١٩٧٠م ) .

( ٣ ) راجع : Busuladzic, Mustafa: "Muslims in Europe" – المسلمون في أوربا ( ص ٧٨ ، ٧٩ ) .

(٤) راجع : علوان عبد الله ناصح : معالم الحضارة في الإسلام ( ص ٧٦ ) .

سقوط طُلَيْطِلَة سنة ( ١٠٨٥م ) ، والتي أصبحت منذ ( ١١٢٥م ) مركزًا مهمًّا للترجمة مرَّت منها المعرفة إلى أوربا ، ومن أشهر مترجميها جيرارد الكريموني Grerardus ( Cremonensi ) ويسمَّى الطليطلي كذلك ( Toletanu ) ، قدم إلى طُلَيْطِلَة من إيطاليا سنة ( ١١٥٠م ) ويُنسب إليه ترجمة ما يقرب من مائة كتاب ، بينها ( ٢١ ) كتابًا طبِّيًّا ، منها « المنصوري » للرازي ، و « القانون » لابن سينا ، ويبدو أن بعضها من إنتاج تلاميذه بإشرافه ، وبعضها بالاشتراك مع غيره خاصة غالب ( Galipus ) وهو مستعرب . وقام بالترجمة في القرن الثاني عشر إسبانيون وآخرون قدموا إلى إسبانيا ، ثم أنشأ ألفونسو العاشر( Alfonso X, 1252-1284 ) ملك قشتالة ( Castile) عددًا من مؤسَّسات التعليم العالي ، وشجَّع الترجمة من العربية إلى اللاتينية ، وأحيانًا إلى اللغة القشتالية .

والحقيقة فإن هذه المؤلَّفات العلمية التي ألَّفها العلماء المسلمون ، سواء في الشرق أو في الغرب تُعتبر بعد ترجمتها إلى اللاتينية وغيرها من اللغات الأوربية أهمَّ المراجع في الجامعات الأوربية حتى نهاية القرن السابع عشر الميلادي . ويعترف كثير من المؤرِّخين الغربين بأنها ساهمت مساهمة عظيمة في النهضة الأروبية ، وبدونها لتأخرَّت القافلة العلمية والثاقافية في الغرب لقرون عديدة [١] .

---

( ١ ) راجع : مجموعة من المؤلفين : أثر العرب والمسلمين على النهضة الأوربية الترجمة البوسنوية ( ص ١٤٧ ) سراييفو ( ١٩٩٩م ) .

هذا ، ويمكن أن نتعرَّف على أوجه الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس من خلال المجالات الآتية [١] :

● **البناء والعمران** : ويتجلى فنُّ البناء والمعمار في بناء المساجد والقصور وتخطيط المدن ، مثل مدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمن الناصر ، وهي - بما فيها من الحدائق والنوافير والحمَّامات العامة والخاصة - تمثِّل نموذجًا رائعًا لما بلغه فنُّ البناء والعمران في الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس . وكان لفنِّ الزخرفة والخطِّ والنقوش تأثيرٌ كبير على الأوربيين ، خاصة ما تركه العرب في الأندلس ؛ كقصر الحمراء ، والجامع الكبير في قرطبة .

● **المجال الأدبي واللغوي** : حيث اهتمَّ حكَّام الأندلس على مرِّ العصور برعاية العلوم والآداب ، واستقطبوا الأدباء والمفكِّرين ، ووفَّروا لهم المناخ المناسب لإبداعهم ، فظهرت طائفة من الشعراء والعلماء والأدباء أنتجوا أعمالًا متألِّقة في مختلف مجالات المعرفة ، فازدهر فنُّ الشعر والرسائل الأدبية والتأليف في علوم اللغة والنحو والمعاجم الطبقات والتراجِم .

● **المجال الديني والشرعي** : لما كان الإسلام مقوِّمًا مهمًّا من مقوِّمات الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس فقد كان الاهتمام بعلومه جزءًا من شخصية الأندلس . ومن هنا ظهر عددٌ وفير من المؤلَّفات التي عُنيت بالقرآن الكريم

---

(١) يراجع في هذا : الموسوعة العربية العالمية ( ٤١٨/٩ ، ٤١٩ ) باختصار .

وعلومه ، وبالحديث النبوي الشريف في روايته وشروحه ، وبالدراسات المنوَّعة في مجال الفقه والأصول والفلسفة وتاريخ الأديان .

● **مجال العلوم التطبيقية** : فقد ازدهر علم الطبِّ ، خاصة في القرنين الخامس والسادس الهجريين ( الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين ) ، وبرع أطبَّاء الأندلس في الجراحة وتحضير العقاقير ، وأنشئت المستشفيات ، وأُلِّفت عشرات المؤلَّفات الطبِّية الهامة مثل : كتاب « الأدوية المفردة » للكتَّاني ( ت ٤٢٠هـ ) ، وكتاب « التعريف لِمَنْ عَجَزَ عن التأليف » للعلَّامة الزَّهْرَاوي ( ت ٤٠٣هـ ) .

أما علم الرياضيات ، فتعدُّ المدرسة التي أسَّسها الفلكي مسلمة المجريطي ( ت ٣٩٤هـ ) من أولى المدارس الأندلسية من هذا النوع ، وقد أدَّت خدمة جليلة لهذا العلم .

وفي ميدان الفلك ظهر ابن برغوث والزرقالي وغيرهما .

فهذه هي أهمُّ مجالات الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس . وقد مرَّت هذه الحضارة بمراحل وأطوار مختلفة تبعًا للأوضاع السياسية التي كانت تمرُّ بالأندلس . والذي لا يقبل الشك أن هذه الحضارة كانت نتاجًا لعقلية عربية إسلامية ، استطاعت بوعي واقتدار أن تزاوج بين فكرها وتلك الأنماط السائدة في شبه الجزيرة الأيبيرية قبل الفتح العربي الإسلامي ، فكانت الأقوى والأشد تأثيرًا بفضل العقيدة واللغة ، ولذلك انصرف الناس عمَّا سواها حتى

شكا القسِّيسون من ضياع اللاتينية بين النصارى ، وانصراف بني جلدتـهم إلى كتابات المسلمين باللغة العربية [١] .

## الأندلس جِسْرٌ عبرت من خلاله إنجازات الحضارة العربية الإسلامية إلى الغرب :

مما لا شكَّ فيه أن المسلمين قد ساهموا في إعلاء الحضارة العالمية وتقدُّمها بفضل أعلامهم في العلوم المختلفة . وتوجد في مكتبات العالم اليوم آلاف من الوثائق التي تشهد بالفضل لمنجزات الحضارة العربية الإسلامية في مجال الفلك والرياضيات والفيزياء والكيمياء والطبِّ والصيدلة والجغرافيا والعمارة والموسيقى وغير ذلك [٢] .

وهذه الوثائق التاريخية تدلُّ دلالة واضحة على ما كان للعرب والمسلمين من تأثير في صناعة النسيج ، والورق ، والدهان ، والصابون ، والحِبْر ، والشَّمْع ، والسكر ، والزيوت النباتية ، والعطور ، والبارود وكذلك في اكتشاف أو تطوير الميزان ، ورَقَّاص الساعة ، والساعة المائية ، والطاحونة المائية والهوائية ، والآلات الفلكية ، وأجهزة سكب المعادن وصكّ النقود ، والمعدَّات الحربية ، والأدوات

(١) المصدر السابق ( ٤١٩/٩ ) .

(٢) يراجع حول إنجازات الحضارة العربية الإسلامية : الموسوعة العربية الإسلامية ( ٤١٦/٩ ) مختصرًا ، أما تفاصيل هذا الموضوع فيمكن مراجعتها في : "John Esposito: " The Oxford History of Islam ، الترجمة الصربية ( ص ١٧٣-٢٧٨ ) بلجراد ( ٢٠٠٢م ) .

الطبِّية والجراحية ، وكذلك بناء الجسور والقنوات المكشوفة وجرِّ المياه ، والتدفئة ، والتبريد ، وأنظمة الريِّ ، والحمامات العامة ، وأبراج المراقبة ، والتحصينات العسكرية ، وغير ذلك من المنشآت والابتكارات التي يعترف الغرب اليوم بفَضْلِهَا للعرب وحضارتهم .

وبهذا تكون الحضارة العربية الإسلامية قد قدَّمت بالفعل للحضارة العالمية إسهامات رئيسية ما يزال العالم يستخدمها اليوم ، مَدِينًا بها للعرب بالسبق والابتكار [١] .

وفيما يتعلَّق بالأندلس فالحقيقة أنها بفضل جامعاتها ومناخها العلمي المشجِّع ( علماء - طلاب العلم - مكتبات - حركة ترجمة - حرية ) لعبت دورًا أساسيًّا في نَقْل إنجازات الحضارة العربية الإسلامية إلى الغرب . فمثلًا في مجال الفلسفة ترجم العلماء العرب أهمَّ مصادر الفلسفة اليونانية القديمة إلى العربية ثم طوَّروها ، فاشتهر الكندي بتطوير فلسفة أفلاطون وأرسطو ، والفارابي بفكرة المدينة الفاضلة ، وابن سينا بفلسفته العقلية ، وابن خلدون بنظرياته الاجتماعية التي ما زالت حتى اليوم في أصل مؤلَّفات الكثيرين من الفلاسفة الاجتماعيين الغربيين ، وبرز ابن رُشْد بفلسفته التي ارتكز عليها بعده فلاسفة غربيون كبار .

وفي الرياضيات اخترع الخُوارزمي - وهو أحد منجِّمي الخليفة المأمون - عِلْمَ الجَبْر الذي انتشر فيما بعد في العالم ،

---

(١) راجع : الموسوعة العربية الإسلامية ( ٤١٧/٩ ) .

وأخذت أوربا عن العرب مفهوم الصفر ونظام التقويم والنظام العشري والأرقام العربية التي هي اليوم أوسع الأرقام انتشارًا في العالم .

وفي علم الفلك أوجد العلماء المسلمون الأسطرلاب لتحديد أوقات الفجر والمغرب والصوم ، ثم طوَّروه فاكتشفوا خطوط الطول والعرض ، وسرعة الصوت والضوء ، حتى أصبح ذلك مرجعًا لعلماء الغرب . وتمكَّن العالم العربي المسلم البِيرُوني ( ٣٦٢ - ٤٤٠هـ ، ٩٧٣ - ١٠٣٨م ) من اكتشاف دوران الأرض حول الشمس ، وهو ما أثبته جاليليو ( Galikeo Galilei, 1564-1642 ) بعد ستة قرون . وترجم الفلكيون العرب الزرقالي والفرغالي والفزاري مؤلَّفات بطليموس في الفلك ، وأضافوا إليها ما بات مرجعًا بعدهم للفلكيين الغربيين .

وفي الطبِّ تفوَّق العرب وكتب علماؤهم - كالرازي وابن سينا وغيرهما - معاجم طبِّية ضخمة كانت بعد ترجمتها إلى اللاتينية مراجع أساسية للأوربيين عدَّة قرون ، وهكذا في سائر العلوم والفنون ، قدَّم علماء العرب والمسلمين ذخيرة علمية كبيرة ساهمت مساهمة عظيمة في بناء الحضارة العالمية .

وقد سبق أن ذكرنا أن حركة ترجمة من العربية إلى اللاتينية وغيرها من اللغات الأوربية كانت واسعة النطاق في الأندلس الإسلامية ، الأمر الذي أفاد منه الغرب بأكمله أيما إفادة ، فانتشرت الكتب المترجمة في القرون الوسطى ،

وأثرت في الثقافة الأوربية . وأصبح انتشارُها وكذا أَثَرُها أوسع بعد استعمال المطبعة في أوائل عهد النهضة ؛ إذ كانت الكتب العلمية والطبّية المترجمة من العربية إلى اللاتينية أول ما طُبع ، ومن هنا طُبع « القانون في الطبّ » لابن سينا من ترجمة جيرارد الكريموني طبعاتٍ متعدِّدة في مدن مختلفة مما يدلُّ على انتشاره الواسع والحاجة إليه (١) .

---

(١) تذكر المصادر التاريخية أن « القانون » قد طبع في ستراسبورج سنة (١٤٧٣ ، ١٤٨٠م ) وفي ميلانو سنة ( ١٤٧٣م ) ، وفي بادوا سنة (١٤٧٦ ، ١٤٧٩م ) وفي البندقية سنة ( ١٤٨٢ ، ١٤٨٦ ، ١٤٨٩ ، ١٤٩٠م ) وفي نابولي سنة ( ١٤٩١م ) وكانت آخر طبعة أوربية « للقانون » سنة ( ١٦٠٨م ) تضمَّنت بعض اللوحات المصورة . وقد طُبع أيضًا بالحروف الغوطية في البندقية سنة ( ١٥٠٧م ) . وأعاد الطبيب المتعرب أندرياس الباكوس ( Andreas Al-Pagus, 1450-1522 ) ترجمته من الأصل العربي إلى اللاتينية ، وطبعت هذه الترجمة بعد وفاته في البندقية سنة ( ١٥٢٧ ، ١٥٤٤ م ) وأعيد طبعها سنة ( ١٥٥٥م ) مع بعض التعليقات لابن أخ المترجم بولس الباكوس ( Paulus Al-Pagus ) وبندكتس رينيوس ( Benedictius Rinius ) مع شرح عدد من المصطلحات فيه وتاريخ حياة ابن سينا ، كما أنها طبعت في بازل سنة ( ١٥٥٦م ) . هذا وقد طبع « القانون » باللغة العبرانية سنة ( ١٤٩١ ، ١٦٠٨م ) وطبع الأصل العربي في روما سنة ( ١٥٩٣م ) بالحروف العربية ومعه بعض تأليف ابن سينا في علم المنطق والعلم الطبيعي وعلم الكلام ، وهذا إشارة إلى وجود عدد كبير من الأطباء الذين كانوا يعرفون اللغة العربية في أوربا آنذاك . هذا وقد أُلِّفت بعض الشروح للقانون باللغة اللاتينية منها شرح جيوفاني باتستا مونتي ( مونتاني ) Giovanni Baptiste Montanija المطبوع في وتبرغ سنة ( ١٥٥١م ) وشرح آخر مطبوع في =

## شهادات بعض الباحثين الغربيين عن دور الأندلس في نهضة الغرب :

لا شكَّ أن لعلماء العرب والمسلمين دورًا بارزًا في بناء النهضة العلمية العالمية ، وفي حقيقة الأمر فإن الحضارة العربية الإسلامية قدَّمت لأوربا زاد نهضتها . وهناك شهادات لبعض الباحثين المنصفين الغربيين عن دور العلماء العرب والمسلمين في النهضة الأوربية بشكل عام ، وعن دور الأندلس وإسبانيا الإسلامية بشكل خاص . وفيما يلي نذكر طائفة من تلك الشهادات :

يقول الأستاذ ألبنديت جواهر لال نهرو في كتابه « لمحات من تاريخ العالم » وهو يصف العلماء العرب المسلمين : « ... كانوا بحق آباء العلم الحديث ، وإن بغداد تفوَّقت على كلِّ العواصم الأوربية عدا قرطبة ، عاصمة إسبانيا العربية وكان

= البندقية سنة ( ١٥٥٤م ) وهذا يدل على مكانة هذا الكتاب لدى الأوربيين ومدى اهتمامهم به ولذلك جعلوه من الكتب المتداولة بين الأطباء ، ومن المؤلفات المقرَّرة في كثير من المدارس الطبية في أوربا إلى نهاية القرن السابع عشر الميلادي . وقد اعتمد كثير من المؤلفين الأوربين في القرون الوسطى وعهد النهضة الأوربية على « القانون » وعلى كتب الرازي وابن رشد والزهراوي وغيرها في تآليفهم الطبية التي أخذت تحلُّ - بالتدريج - محلَّ الكتب العربية في الأوساط العلمية الأوربية .

يراجع في هذا الموضوع : « تأثير الطب العربي في الحضارة الأوربية في عصر النهضة » للدكتور محمود الجليلي مقال منشور على شبكة المعلومات العالمية ( الإنترنت ) على عنوان : http//:www. islamonline. com

لا بدَّ من وجود : ابن الهيثم ، وابن سينا ، والخوارزمي ، والبيروني ، لكي يظهر : جاليليو ، وكبلر ، وكوبرنق ، ونيوتن .. » [١] .

ويقول الدكتور غوستاف لوبون في كتابه « حضارة العرب » : « .. ويُعْزَى إلى بيكون (Roger Bacon, 1214-1294 C.E) على العموم - أنه أول مَنْ أقام التجربة والملاحظة ، اللتين هما أساس المناهج العلمية الحديثة ، مقام الأستاذ . . ولكنه يجب أن نعترف قبل كلِّ شيء بأن ذلك كله من عمل العرب وحدهم » [٢] .

ويقول أيضًا : « إذا رجعنا إلى القرن التاسع والقرن العاشر من الميلاد ، حين كانت الحضارة الإسلامية في إسبانيا ساطعة جدًا ، رأينا أن مراكز الثقافة في الغرب كانت أبراجًا يسكنها سنيورات متوحِّشون يفخرون بأنهم لا يقرأون ، وأن أكثر رجال النصرانية معرفة كانوا من الرهبان المساكين الجاهلين ... ودامت همجية أوربا زمنًا طويلًا من غير أن تشعر بها ، ولم يبد في أوربا بعض الميل

---

(١) راجع : الملا أحمد علي : أثرُ العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية (ص ١١٥ ، ١١٦ ) .

(٢) راجع : محمود الشيخ عبد الحليم : أوربا والإسلام ( ص ١٤٦ ) الطبعة الثالثة دار المعارف القاهرة ، ومثل هذه الشهادة أدلى بها عديد من الباحثين الغربيين راجع : Briffault: "The Making of Humanity", London, 1928, pp. 200-201.

إلى العلم إلَّا في القرن الحادي عشر وفي القرن الثاني عشر من الميلاد ، وذلك حين ظهر فيها أناسٌ رأوا أن يرفعوا أكفانَ الجهل الثقيل عنهم ، فَوَلَّوا وجوههم شطر العرب ( المسلمين ) الذين كانوا أئمة وحدهم » [١] .

وجاء في كتاب "Legacy of Islam" « التراث الإسلامي » لمجموعة من المستشرقين ما نصُّهُ : « من الثابت أنه لمَّا كانت أغلب أوربا تَرْزَحُ تحت نير الشقاء والفساد ، ماديًّا وروحيًّا ، أقام المسلمون في الأندلس حضارة زاهرة وحياة اقتصادية منظَّمة . لعب الأندلسيون دورًا حاسمًا في تطوير الفنِّ والعلم والفلسفة والشعر ، وأثَّروا حتى في أرفع أعلام الفكر النصراني للقرن الثالث عشر ، كما عند تُومَا الأكويني ( Thomas Aquinaš 1225-1274 C.E ) ، ودانتي ( Dante Alighieri, 1265-1321 ) ، فكانت إسبانيا – مرة – مشعل أوربا » [٢] .

وقال الأستاذ فيكتور روبنسون بصدد حديثه عن الموازنة بين الحضارة الإسلامية في الأندلس وبين الحالة في أوربا : « كانت أوربا في ظلام حالك بعد غروب الشمس ، بينما

---

(١) راجع : لوبون ، د . غوستاف : حضارة العرب ( ص ٥٦٦ ٥٦٧ ) ترجمة من الفرنسية عادل زعيتر ، القاهـرة ( ١٩٦٤م ) ، وانظر أيضًا : "Stanley Lane-Poole, The Moors in Spain" ، الترجمة العربية : العرب في إسبانيا ( ص ١١٥ ) القاهرة ( ١٩٦٠م ) .

(٢) راجع : « Legacy of Islam » تراث الإسلام ( ٢/١٠ ) مجموعة بحوث لعدد من المستشرقين ، ترجمها إلى العربية الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ( ١٩٣٦م ) .

كانت قرطبة تضيئها المصابيح العامة ، كانت أوربا تغطِّيها الهوام بينما كان أهل قرطبة مثال النظافة ؛ كانت أوربا قذرة بينما شيَّدت قرطبة ألف حمام ، كانت أوربا غارقة في الوَحَل بينما كانت قرطبة مرصوفة الشوارع ؛ كانت سقوف القصور في أوربا مملوءة بثقوب المداخن بينما كانت قصور قرطبة تزيِّنها الزَّخْرَفَة العربية العجيبة ؛ وكان أشراف أوربا لا يستطيعون توقيع أسمائهم بينما كان أطفال قرطبة العربية يذهبون إلى المدارس (١) ؛ وكان رهبان أوربا يلحنون في سِفْرِ الكنيسة بينما كان معلِّمو قرطبة كانوا قد أسَّسوا مكتبة تضارع في ضخامتها مكتبة الإسكندرية العظيمة .. » (٢) .

---

( ١ ) بخصوص هذه الجزئية ذكر المؤرِّخ العربي المسيحي فيلب حتِّي ( philip Hitti ) في كتابه « تاريخ العرب » أنه في الوقت الذي كان الخلفاء المسلمين في الشرق من أمثال هارون الرشيد والمأمون يقرأون الفلسفة اليونانية والفارسية كان أندادهم في الغرب من أمثال الملك شارل ووزرائه يكتبون أسماءهم الشخصية بصعوبات بالغة . وقد ذكر حُتي هذه الحقيقة رغم تحامُله على الإسلام والمسلمين في كثير من المواضع في كتابه المذكور . راجع : philipp Hitti: "History of the Arabs", p. 315 . نقلًا عن كتاب M. M. Sharif: "A History of Muslim Philosophy with Short Accounts of other Disciplines and the Modern Renaissance in Muslim Lands" ، التراجمة الكرواتية ( ص ٣٥٣ ) زاغرب ، ١٩٩٠ .

(٢) راجع : علوان ، عبد الله ناصح : معالم الحضارة في الإسلام وأثرُها في النهضة الأوربية ( ص ٩٩ ، ١٠٠ ) .

# المراجع


● القرآن الكريم .

● « الموسوعة العربية العالمية » ، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع ، المملكة العربية السعودية ، ( ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م ) .

● « المعجم الوسيط » ، إصدار مجمع اللغة العربية في القاهرة ، الطبعة الثالثة .

● الملا ، أحمد علي : « أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية « ، دار الفكر ، دمشق ، ( ١٩٩٦م ) .

● البكري ، عبد اللّٰه بن عبد العزيز : « جغرافية الأندلس وأوربا » ، طبع بيروت ، ( ١٩٦٨م )

● علوان ، عبد اللّٰه ناصح : « معالم الحضارة في الإسلام وأثرها في النهضة الأوربية » ، دار السلام ، القاهرة، طبعة ثالثة ، ( ١٤٢١هـ - ٢٠٠١ م ) .

● مؤنس ، حسين : « فجر الأندلس » ، القاهرة ، ( ١٩٥٩م ) .

● القرضاوي ، د . يوسف : « السنة مصدرًا للمعرفة والحضارة » ، دار الشروق ، القاهرة ، ( ١٩٩٧م ) .

● عاشور ، سعيد عبد الفتاح : « أوربا العصور الوسطى » القاهرة ، ( ١٩٦٦م ) .

● عِنان ، محمد عبد اللَّه : « دولة الإسلام في الأندلس» ، القاهرة ، ( ١٩٦٩م ) .

● الحجّي ، د . عبد الرحمن علي : « التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة » ، ( ٩٢ - ٨٩٧هـ ، ٧١١ - ١٤٩٢م ) ، دار القلم ، دمشق ، الطبعة الخامسة ، ( ١٩٩٧م ) .

● الشطّاط ، د . علي حسين : « تاريخ الإسلام في الأندلس » ، دار قباء ، القاهرة ، ( ٢٠٠١م ) .

● الأندلسي ، ابن سعيد : « المُغْرِب في حُليَ المَغْرِب » ، تحقيق د . شوقي ضيف ، القاهرة ، ( ١٩٦٤م ) .

● El-Hajji, Abdur- rahman, Ali, Andalusian Diplomatic Relations with Western Europe, Beirut, 1970 .

● John Espossito: "The Oxford History of Islam"
الترجمة الصربية ، بلجراد ، ( ٢٠٠٢م ) .

● Busuladzič Mustafa: "Muslimani in Evrope"
- « المسلمون في أوربا » ، سرايبفو ، ( ١٩٩٧م ) .

● Gerald Brenañ " The literature of the Spanish people "
- « الأدب الإسباني » ، الترجمة الصربية ، بلجراد ، (١٩٧٠م ) .

● مجموعة من المؤلفين : « أثر العرب والمسلمين على النهضة الأوربية » ، الترجمة البوسنوية ، سرايبفو ، ( ١٩٩٩م ) .

● محمود ، الشيخ عبد الحليم : « أوربا والإسلام » ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة .

● الألباني ، محمد ناصر الدين : « سلسلة الأحاديث الصحيحة » ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ( ١٩٩٥م ) .

● JBriffault: "The Making of Humanity," Londoñ 1928 .

● لوبون ، د . غوستاف : « حضارة العرب » ، ترجمة من الفرنسية عادل زعيتر ، القاهرة ، ( ١٩٦٤م ) .

● Stanley Lane-Pool, "The Moors in Spain" الترجمة العربية : « العرب في إسبانيا » ، القاهرة ، ( ١٩٦٠م ) .

● "Legacy of Islam"، « تراث الإسلام » ، مجموعة بحوث لعدد من المستشرقين ، ترجمها إلى العربية الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، ( ١٩٣٦م ) .

● م . م . شريف : « تاريخ الفلسفة الإسلامية » ، M . M . Sharif : "AHistory of Muslim Philosophy with Short Accounts of other Disciplines and the Modern Renaissance in Muslim Lands" ، الترجمة الكرواتية ، زاغرب ، ( ١٩٩٠م ) .

● فرانشسكو غابريالي : « تاريخ الأدب العربي » ، Francesco Gabrieli: "La leterratura araba" , Nuova edizione aggiornatã Firenze - Milano, (1967) .

● فرناند براودل : « الحضارات عبر التاريخ » ،
Fernand Braudel: “Gramarie des Civilizations”, Les Editions Arthaud, Paris, (1987) .

* * *

# الفهرس

* * *

رقم الإيداع
٢٠٠٧ / ١٦١٨٣
الترقيم الدولي I.S.B.N
977 - 342 - 572 - x

# السيرة الذاتية للمؤلف



• د . صفوت مصطفى خليلوفيتش .

• من مواليد مدينة زنيتسا في البوسنة والهرسك عام ( ١٩٦٨م ) .

• تخرَّج من مدرسة غازي خسرفبك الإسلامية العريقة عام ( ١٩٨٨م ) ، والتحق بعد ذلك بجامعة الأزهر الشريف بالقاهرة حيث تخرَّج من كلية أصول الدين عام ( ١٩٩٢م ) .

• وحصل على درجة الماجيستير من نفس الكلية عام ( ١٩٩٧م ) ، وذلك عن رسالته المعنونة « التفسير بالمأثور أهميته وضوابطه – دراسة تطبيقية في سورة النساء » ، وقد نشرت هذه الرسالة بالقاهرة عام ( ١٩٩٩م ) عن دار النشر للجامعات . وفي عام ( ١٩٩٧م ) تقدَّم للالتحاق بدراسة الدكتوراه ، وحصل عليها عام ( ٢٠٠١م ) مع مرتبة الشرف الأولى عن رسالته المقدَّمة إلى جامعة الأزهر تحت عنوان : « الإمام أبو بكر الرازي الجصَّاص ومنهجه في التفسير » ، وقامت لجنة المناقشة بالتوصية بنشر الرسالة لما لها من قيمة علمية عالية ، وقد تَمَّ نشرُها بالفعل ( ٢٠٠١م ) عن دار السلام بالقاهرة .

• وقد تُرجم هذا الكتاب إلى اللغة البوسنوية ونشر عن كلية الدراسات الإسلامية في سرايفو عام ( ٢٠٠٤م ) .

• ويقوم د . صفوت خليلوفيتش بتدريس التفسير وعلوم القرآن وكذلك السيرة النبوية في كلية التربية الإسلامية في زنيتسا .

• ويعمل أيضًا أستاذًا زائرًا في كلية الدراسات الإسلامية في سرايفو حيث يدرِّس مذاهب التفسير المعاصر في العالم العربي ، وقد درَّس في هذه الكلية أيضًا لطلاب الدراسات العليا .

• كما أنه حَاضَرَ أيضًا في الجامعة العالمية في نوفي بازار في إقليم سنجق التابع لجمهورية صربيا .

• قام بنشر ما يزيد عن ( ٧٠ ) ورقة علمية في مجالات التفسير والدراسات الإسلامية والحضارات والتاريخ والدعوة الإسلامية والتعليم .

• ويساهم بشكل ملحوظ في كثير من المجلات والنشرات والمؤتمرات في البوسنة والهرسك وخارجها ، وهو عُضْوٌ في الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين ، وقد انتُخب في اجتماع الجمعية العمومية الثاني الذي عُقد في مدينة إسطنبول في يوليو ( ٢٠٠٦م ) في مجلس الأمناء لهذا الاتحاد .

• وله عدَّة كتب ومؤلَّفات ؛ منها هذا الكتاب « الإسلام والغرب رؤية محمد أسد » ، الذي تناول فيه بالبحث والدراسة فِكْرَ العلاَّمة محمد أسد ، وقد تُرجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية والألمانية ، وكَتَبَ له تقريظًا العالم الألماني المسلم الشهير مراد هوفمان .

● ألَّف أيضًا كتابًا عن حفظ القرآن ، وتُرجم في تورونتو ( كندا ) إلى اللغة الإنجليزية وطبع بعنوان : Hifz Memorization of the Qur'an . ويُعدُّ كتابه Osnovi tefsira من المراجع الهامة باللغة البوسنوية في مجال أصول تفسير القرآن الكريم . وله مؤلَّفات أخرى .

● أسَّس د . صفوت مع مجموعة من العلماء المتحمسين للثقافة الإسلامية المجلة الإسلامية The New Horizons أو « الآفاق الجديدة » عام ( ١٩٩٩م ) والتي تصدر بانتظام منذ ذلك الحين في البوسنة ، وهي مجلة تعمل على ترسيخ القيم الثقافية والروحية الإسلامية ، وقد عُيِّن رئيسًا لمجلس أمنائها عام ( ٢٠٠٢م ) .

* * *

## نبذة عن المترجمة

**د . هَدير رفعت أبو النجاه :**

من خرِّيجي كلية الدراسات الإنسانية قسم اللغات والترجمة الفورية شعبة اللغة الإنجليزية جامعة الأزهر عام ( ١٩٨٧م ) . حصلت على الماجيستير عام ( ٢٠٠٠م ) من ذات القسم وتخصَّصت في الأدب الأفروأمريكي (الأدب الأمريكي المنحدر من أصول إفريقية ) ، وحصلت على الدكتوراه عام ( ٢٠٠٤م ) في نفس التخصص ومن نفس القسم .

د . هدير أبو النجاه كاتبة وأديبة وشاعرة ، ولها العديد من الكتب والمقالات في الأدب والشعر باللغتين العربية والإنجليزية .

أهمُّ مؤلفات د . هدير أبو النجاه المجموعة المتميزة سلسة كتب « مفاتيح الجنة » Keys to Paradise والتي تتكون من عشرة كتيبات ، وتعتبر أول مجموعة متكاملة للتعريف بالإسلام بالإنجليزية . هذا بالإضافة إلى سلسلة طويلة من المقالات الإنجليزية عن الإسلام في القسم الإنجليزي بمجلة الأزهر نشرت من عام ( ١٩٨٦م ) وحتى عام ( ٢٠٠٠م ) .

قامت بترجمة العديد من الكتب في المجالات المختلفة منها : « الكعبة مركز العالم » The Kaaba is the Center of the World ، ومراجعة ترجمة كتاب « قصص الأنبياء »

لابن كثير ، و « رحابة الإسلام » وغيرها . هذا بالإضافة إلى ترجمة ومراجعة العديد من الكتب في المجالات الأخرى مثل الكمبيوتر والتعليم والاقتصاد الإسلامي .

شغلت د . هدير أبو النجاه عدة مناصب في مجالي الصحافة والتعليم ، منها رئاسة تحرير مجلة رياض الجنة الأليكترونية ، ومسؤول التحرير في مجلة المرأة المسلمة في الولايات المتحدة الأمريكية ، والمسؤول التعليمي عن تعليم العربية والقرآن في المركز الإسلامي بمدينة هانتسفيل بولاية ألباما الأمريكية من عام ( ١٩٩٣م ) وحتى عام ( ١٩٩٧م ) .

تشارك د . هدير أبو النجاه في كثير من المؤتمرات العلمية والثقافية في مجالات الأدب والثقافة الغربية والإسلامية والتعليم ، ولها العديد من الأوراق العلمية المنشورة في هذه المجالات ، وهي كذلك عضو في عدة جمعيات علمية منها : جمعية لسان العرب ، وجمعية تدريس اللغة الإنجليزية .

* * *

يُعدُّ محمد أسد – بدون أدنى شكٍّ - أكثر المسلمين الأوروبيّين تأثيرًا في القرن العشرين ، فقد أسهَمَ في إثراء الفكر الإسلامي بدرجة منقطعة النظير ، وساعده على ذلك إتقانه للغة العربية بدرجة لم يصل إليها أي أوروبي من قبل . وقد مكَّنَتْه لغته العربية القوية من الاطّلاع على المصادر الأصلية للإسلام ، وهي القرآن الكريم وكتب الأحاديث . أما في مجال النقد الثقافي فقد أثبت محمد أسد (ليوبولد فايس سابقًا) جدارة في قدرته على تحليل المبادئ الأخلاقية ونواحي القصور المعرفي في الحضارة الغربية ، وكذلك عوامل ضَعْف العالم الإسلامي قبل وبعد الاحتلال. وقد استطاع محمد أسد من خلال أعماله أن يَبْنِيَ جُسورًا للتواصُل بين الشرق والغرب ، وتميَّزت إسهاماتُه الواسعة في هذا المجال بتعبيرها عن الواقع الحالي نظرًا لحداثتها فلم يتعدَّ عمر دراساته الحضارية قرابة نصف القرن ، وكان ذلك قبل أن يتفشّى سُوءُ فَهْم الإسلام والقَلَق من انتشاره في العالم ، كما هو حادثٌ الآن . ومن ثَمَّ يتعيَّن علينا أن نُعيد قراءة أعمال محمد أسد ونتعرَّف على رؤيته للعلاقة بين الإسلام والغرب .

مراد ويلفريد هوفمان

Dar-Alsalam Designs

الناشر
دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية
هاتـــف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٤٠٥٤٦٤٢
فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢+)
الإسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣+)
email:info@dar-alsalam.com
www.dar-alsalam.com